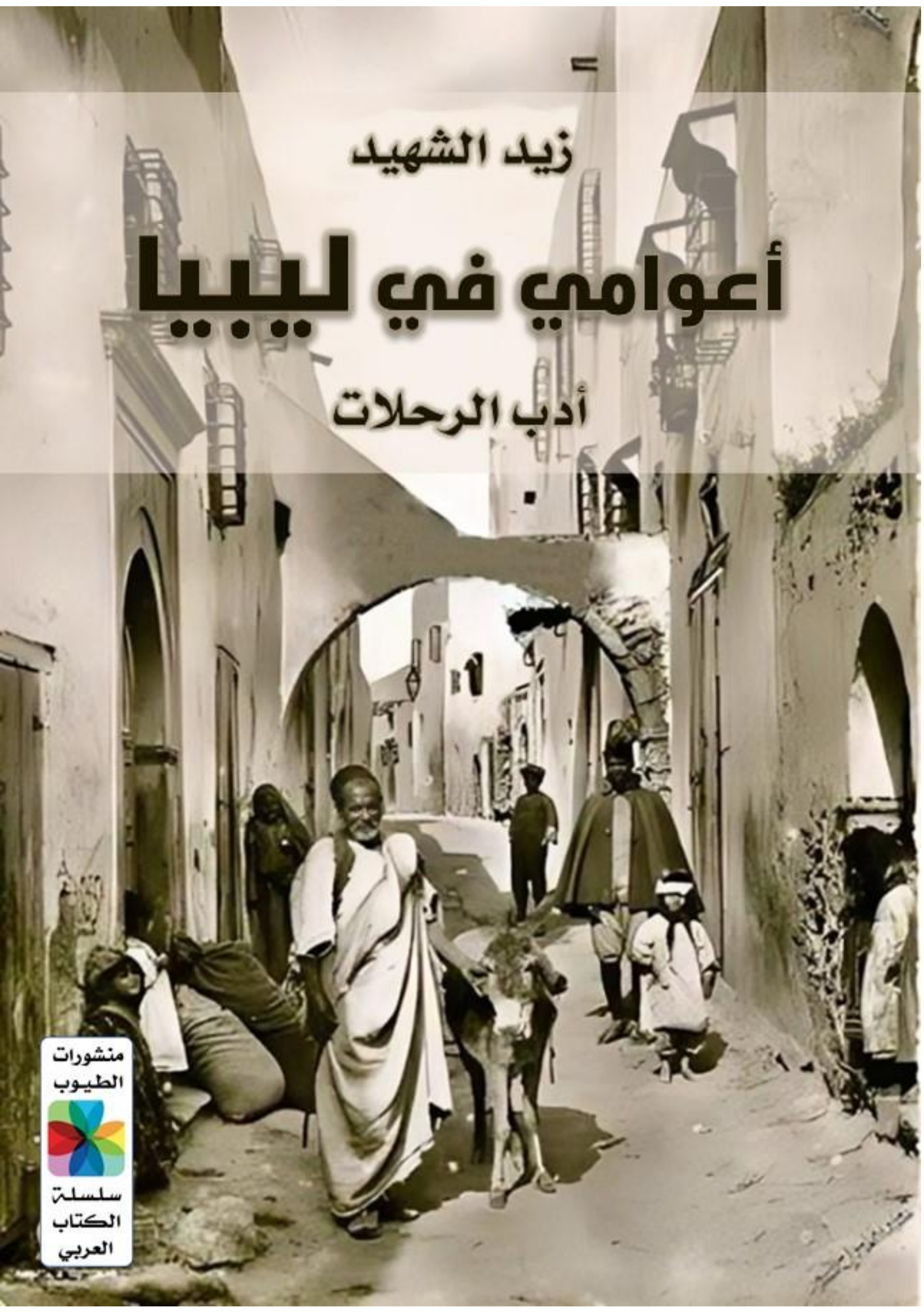


زيد الشهيد
أعوامي في ليبيا
أدب الرحلات
منشورات
الطيوب
سلسلة
الكتاب
العربي

زيد الشهيد

أعوامي في ليبيا

2004-1998

من أدب الرحلات

الكتاب: أعوامي في ليبيا 1998 - 2004 (من أدب الرحلات)

الكاتب: زيد الشهيد

الناشر: دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع (سوريا)

النسخة الإلكترونية: موقع بلد الطيوب (منشورات الطيوب)

سلسلة الكتاب العربي 23

صورة الغلاف:

التصفيف والإخراج: موقع بلد الطيوب

www.tieob.com

toyob.libya@gmail.com

2024



الكاتب

زيد الشهيد

إهـــــداء

إلى أصدقائي في كل مكان من أرض ليبيا المترامية، الذين التقيتهم على مرمى حديثٍ عابر أو الذين عشت معهم مكاناً وزماناً ومشاعرَ..

إلى محمد إبراهيم السنوسي ومحمد رحومه الربيعي ممثليهم في زلة..

إلى عبد الرزاق الماعزي ورامز النويصري وخالد درويش أصدقائي في طرابلس..

إلى محمد زيدان ممثلهم في ودّان..

إلى عبد الوهاب قرينقو، وعبد الله زاقوب ممثليهم في هون..

إلى محمد المزوغي ممثلهم في بنغازي..

هي نفحةُ الودِّ التي تلقَّيتها منكم فنَمت المفردةُ وتناسلَت حتى استحالت كتاباً.

زيد

المحتويات

القسم الأول

القسم الثاني

القسم الأول

رؤية

أبجدية المكان.. تماهيات الزمن

يكاد يكون من المؤكَّد، بل الجَزم أنَّ النص – أيَّ نص– يبقى هلاماً بلا أبعاد ولا مقاسات إنْ هو خلا من، أو تخلّى عن أبجدية المكان.. ولا يمكن تصوّر عالم بملامح وسحنات إنْ لم يكن للمكان وجود في تشكّله. إذْ المكان (هذا الآتي من هيولي التشكّل) مرتكزٌ أساسي لفحوى الاستغراق/ لتضاريس السير/ لجغرافية التشبّث.. والأدب كأحدِ مناهل المعرفة والتأريخ ما زال من أكثر التدوينات الإنسانية تشبثاً بالمكان.. يتبدّى فيه التأطر المكاني للحدث. ويكون الوقوف شعراً – كأحد أوجه التعبير – بكاءً استجلبته الذكرى وأوجدته البواعث؛ وما امرؤ القيس إلاّ أحد شهود المكان وأهميته داخل النص (قفا نبكي من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ/ بسقط اللوى بين الدَخول فحوملِ).. وإذا انتفى مثول المكان إزاء العين فليس بالمستطاع محوه من جغرافية البواطن، لأنَّ المتنبي يوماً ما أسرَّ لنا بـ(لكِ يا منازلَ في القلوبِ منازلٌ / أقفرتِ أنتِ وهنَّ منكِ أواهِلُ)؛ فتلاه السيّاب

يخلِّد " جيكور " قريته الجنوبية و"بويب" النهر الشرياني مغذّي القرية بالديمومة وساقي الشاعر الإلهام... وفي الخطاب الروائي العربي عرفنا (بين القصرين) و (السكّرية) و (قصر الشوق) منابت مكانية لثلاثية نجيب محفوظ: كما قرأنا نتاجات إبراهيم الكوني حيث الصحراء وجود مكاني مهيمن، تتحرك على تفاصيله الشخوص زارعة بصماتها؛ حافرة زمناً لا خلقَ لدقائقه دون ذرّات أديمه، فيما اعتمدت النصوص السردية الشيئية على تفعيل المكان وتكريس تفاصيله إذْ عين الوصف تتوجّه فترصده كعين كاميرا لا تغفل جزئياته، ولا تسهو عن رموزه ومؤثراته.

عندما نزور آثاراً أو ندخل متحفاً لا نتلمّس زمناً مكتوباً على أحجار أو لافتة يحتضنها جدار إنّما مكاناً يقول الحقب الفائتة ويفوه بلسانها / لمسات تحكي زمناً غائراً، دفيناً في تواليات غدت نائية لولا المكان لتلاشى وجود الزمن؛ ولغدونا نبحث عن تاريخ ضائع وجذور متلاشية تفضي بنا إلى ضفاف التقاعس، ثم الركود راحلين بأحلام الخلود في هوّة اللامبالاة؛ تاركين جلجامش بآماله التي نترجمها جوفاء، مثلما نقيسها بمثابة ضرب من الجنون... لذا دفعني ما تقدّم إلى تناول أماكن هي أزمنةً وأحداثاً / خُطى وأفراداً / مدناً وتواريخَ. وطرابلس زاخرة بالأماكن التي تستحق التناول؛ مفعمة بالرؤى التي لها ارثها المضمّخ بالأفعال مثلما لها الحق في المباهاة برفلها على شاطئ بحري وثنايا سهوب يافعة.

في طرابلس تنتشر الساحات / الميادين؛ وتتناسل الشوارع متفرعة، متداخلة كأمعاء تبني هندسةً تجمع خارطة القلاع التي تزخر بها المدن

الساحلية؛ وتتباهى بأزياء الحضارة المعاصرة. طرابلس تدفع بجذورها إلى أعماق الزمن السحيق؛ كذا تعلو ازدهاءً لملامسة جبهة الألق.

ولي اعترافٌ يُقر بأنَّ الذي توجّهت إليه ذائقتي وصوّرته عين قلمي لا يشكّل إلاّ اليسير ممّا تزخر به هذه العاصمة البهيّة؛ وحسبي أنَّ لي عذراً بذلك، فأنا أجيئها زائراً تحمله أكف الدهش، وتسرقه لحظات الزمن الوامض، الخطيف.

زيـد...

البحرُ.. حبرُ الطبيعة / فضاءُ اللازورد

تأبّطَ المرايا

واستعانَ بالألق

البحرُ

الذي رداؤهُ النسيم..

هو البحرُ.. الامتداد اللايحد؛ الأمواه التي تغرينا بشذريتها حتى ليظنها المتطلع البسيط أنّ اللون المصطبغة به نابعٌ من جوفٍ سحيقٍ / مكمن زرقة لا تنتهي.. قطعاً سيعتريه الذهول عندما يكتشف أنّه مرآة عاكسة لسماء تطبقُ بشكلِ فضاء كروي / فقاعة هائلة.. ضربة من ضربات فرشة الطبيعة على اللوحة الخلقية.

يوما ما كان البحرُ غيهباً / منبت تهجّسٍ / مثار رعب / رحلة أهوال، لدرجة أنّ الآخرين الذين ولعوا بفحواه ومارسوا السير على جسدهِ الساري هابوه؛؛ سمّوا إحدى جنباته " بحر الظّلمات". حسبوا الولوج فيه لا نهاية له.. لا عودة منه !

البحرُ أبُ النهر، ابن المحيط. لا مندوحة إذاً من أن يطرق المهموم أبواب قلاعهِ فليس له سوى مملكة الأمواه ملاذاً ينهل من عاطفة انسراحها، ومن فيوض الأعماق يجمع الأسرار. يتكىء على كفِّ هدوئهِ ليّسرِّب شحنات كَدرهِ.

لتعددها صارت للبحار أسماءٌ واستولَدت لها أراضٍ تحاذيها / تطل عليها.. هي إذاً قرينة لكائنية جغرافية أسمها اليابسة. تستمد زينتها من فتنتهِ، ورونقها من صفائه.

***

من متكأي عند المرسى أرنو... طرابلس تضمّني بمعطف أنفاسها.

الزوارق الصيّادة تتحاذى.. الصيّادون منهمكون يعدّون الشِّباك استعداداً للنداء الأزلي بينما العائدون تأتلق عيونهم بفرحين: فرح العودة محمَّلين بأجنحة السلامة والشوق لمن ينتظرهم، وفرح الامتلاء الذي تضجُّ به أرحام زوارقهم.

الفنارُ بهامته يعلوا _ كما لو كان أُماً تترقب ولداً غاب منذ أطلقت أول دمعة للفراق أو كزوجةٍ رحلَ بعلها مع أولى أبحديات الغسق ليعود إليها مع أواخر ذيول الشفق _ متطلّعاً بعين الرؤية صوب السفن الجبارة المتناثرة هنالك وقد رمت أثقال مراسيها إلى الأعماق بلوغاً للتوقف.. لا تقوى على الدنو؛ تخشى ضحالة الشاطئ.

طرابلس تمارس غوايتها الجغرافية وزينتها العمرانية للبحارة المجبرين على الوقوف بعيداً والتطلّع لمفاتنها الرخيّة [المدينة القديمة بأقواسها / بمناراتها / بسورها وأزقّتها / بأسرارها وخلجات دواخلها / بصرخات النسوة المُقتحمات بخناجر المخاض وأشباح الموت المترصدة أو الخارجة لهنّ من وراء أستار التخفّي / بالصمت المحتقن بروائح الغدر داخل قلعة الحاكم ونزعات قابيل وهابيل تسري إلى الولدين " يوسف " الطامع و " حامد" الأنصع طمعاً، وخشية الأم الصاغرة، الهاجسة شيئا سيحدث مغموساً بنجيع الدماء الدفّاقة، الفوّارة / بالجموع الراحلة تحت محفّة الانتقال الأبدي في حومة زغاريد الطاعون المتفشّي كحلمٍ دائم من أحلام اليقظة المقيتة / بالمتحف المُشرِع دواخلاً، انتصاباً وشيئيات برموز الذين طمعوا بالأرض والسواحل فجاءوها قراصنة ومحتلّين / بصواري السفن التي جابت البحار فآثرت الولوج من أبواب " تريبولس " / بأنفاس الذين قدموا يحملون ألوية الأديان: عثمانيون وصليبيون؛ فينيقيون وأثينيون؛ رومان وأسبان. ولم يكن الهمُّ الأول لديدنهم سوى الاستحواذ والاستلقاء على ثرى النهب المفتوح / بارتفاعات الفنادق ونهوض العمارات: "ذات العماد"

وهندستها الغريبة الملفتة، خمس قنانٍ متجاورة مقلوبة.هكذا تعرض لك نفسها فتتساءل بفضول الدَهَش: كيف توالدت لمصممّها فكرة كهذهِ؟ وكيف أقنعت مَن عُرِضت عليه هذه المفارقة الهندسية؟]..

مياه الساحل الطرابلسي تكرر لونها اللازوردي _ الفيروزي _ تهبُ موجها للصخور. موجة تتبعُ موجة... وموجة تتبع موجة.. مويجات كأنهنَّ الفتيات الراعشات الفاتنات الهافيات يتقاطرنَ؛ أو كالقطا أفواجاً أرتالا يتهادين، دافقات يافعات؛ على أديم الماء رافلات.. ممهورات بالعشقِ والشبقِ، والولهِ ا

***

توجهاً للبحر عديدِ الفتيّة يحملون الحقائبِ معلقة على الأكتاف أو متأرجحات بالأيدي فتعود السنين تترى تمزّق قشرة الخفوت تحتفي بالمنزويات من الأيام لإدراك مصافي البراءة.. أعود إلى صيف العام 1974 أمواهُ المتوسط عند بيروت الميناء تسربل أجسامنا في واحدة من سفريات السياحة، نحنُّ الآتين من بلادٍ صار النفط مورداً هائلاً يفتح آفاق التعرّف على ما وراء رقعة الشطرنج.. الشاطئ الرملي _ الموشوم بالأجساد الهاربة من لفح شمس مهيمنة، باحثة عن خثرة مياه تختزن طراوة منعشة _ يمتد كشريطٍ ذهبي، وبيروت البناء الأنيق تطلُّ نظيفة / فارعة / بهيّة. قوامها يتماثل وانسياب الجغرافية البائنة إزاء أنظار المتطلّعين من أيمّا نقطة من البحر... يومها كان لبنان يعيش ابتداءات ريح تشاؤوميّة / فتنة طائفية /

دينية تنذر بأعاصير من (رصاص) وغدائر من (دم)... ذائقةُ المياه تشير لملوحةِ بحرٍ؛ على عكس فضاء " جونيه" صباح أدركناه عبر " التلفريك" وواجهتنا ملامح القرية الجبلية الخضراء بوداعةٍ سلّمتنا إلى كنيسة "ماريّا"..

هناك أشعلنا الشموع وارتقينا سلّماً أوصلنا إلى محفّات انتصاب الأم / التمثال؛ مريم ووليدها السيد المسيح، على قاعدة أسطوانية تمارس العوم اليومي في كرنفال هواء فضفاض / قدسي / مهيب... على الجدار ومثلما يؤدي المرتقون _ معظمهم سيّاح _ فعل الكتابة حفرنا أسماءنا على الطلاء الأبيض، ودوّنا تاريخ دخولنا الدير.. وحين بعثنا بعيوننا إلى الأفق تجلّى المتوسط مسترخياً تحت شمس سخينة وقد عرّى جسده بانتشاء وجذل.

هبطنا إليه ساعات القيلولة. واندفعنا نلجّهُ كما الصبية المغمورين بالنزق. نغطس ونعوم / نرفس بطن الماء بأرجلنا أو ننساب بسكون الفلّين الطافي. نتساءل عن عدد الموانئ والمرافئ التي تشارك بيروت حصّتها منه...... وها أنا أحصي أمواهه بعدما جرت دقائق الذكرى سِراعاً.. أقول لعلّها المياه نفسها التي غطستُ في هلام طراوتها قبل عقدين من الأعوام. لعلّها الأمواج ذاتها التي كنّا نعدو إليها لنمنعها من الجنون المميت / من اندفاعها الأهوج، تلك المويجة التي تشبه أخواتها:

تلفّعتْ معاطفَ الضباب

واستبشرتْ تمارس الخدر.

تنقلها صوبَ قريناتها

المويجات.. إلى هنا دنت.

أمامَ أنظار الرمال

هائجةَ تعرَت !!

و انتحرت من شدَّة

الجـذل.

أتركُ البحرَ ورائي وأجتاز رصيفاً ثم موقفاً للعربات. ألتقي قوساً حجرياً أثريّاً يعلو متصاعداً لكنّه يتقزّم حيال المشيدات البنائية العائدة لأعوامٍ قليلة خلت. تستوقفني المهارة الحفرية على المسوح السطحية تكتسي شوائب الزمن الغابر.تشدُّ اهتمامي هندسةٌ إبداعية هي تاريخ من حجر.. الناس تمرق خارجة والجة عبر القوس. أحاول الدخول؛ بيد أن المحاولة ووجهت بشيْ من الاستثارة عندما تصدّى لي يوقفني؛؛ رجلٌ يحمل غرابة ظاهرة في القامة والمظهر.. أحمر الوجه محتقنهُ. الطول فارع ناهض، أمّا الملبس فأعاد لي صباي يوم كنّا في ستينات القرن العشرين مهووسين بأفلام" هرقل الجبار " و" سبارتكوس محرر العبيد "؛ كذلك " بزوغ الإمبراطورية الرومانية ثم أفولها ". هل الذي أوقفني (ماركوس بروتوس)* أم (أورليان أورليانوس) **؟! (هوميروس)*** أم (سوفوكليس)****..هكذا هجمَ السؤال عليَّ بغتةً.

_ لا هؤلاءِ ولا أوُلئك !.. قال.. أنا رئيس الجمارك هنا، على هذه الأرض. لوفرة المال لديَّ وعميم الخيرات أوعزتُ إلى مهرةِ بنائي روما أن يحضروا ليقيموا قوساً يبقى إرثاً وهيكلاً لا يضاهيه هيكلٌ حتى في روما عاصمتنا الأبدية. سأهديه للإمبراطور " ماركوس أورليوس " ***** ولا بدَّ لمن سيأتي بعد تهافتات العقود والحقب العوم على غيوم الدهشة والإعجاب، ويرى إلى جمال لا يلمسه إلاّ في الفراديس السماوية.

استدار يُطلعني:

_ أُنظرْ؛ هذه القوائم الأربع بفخامتها وهيمنتها تستند على هذه القاعدة الرخامية المهولة فخر الإبداع الروماني. مؤكَّداً سيفتتن القادمون برهبة سعتها وغموض تكوينها.. وهاك ذلك السطح بالسقف والأخاديد بدعة لعين الرائي... بلساننا الروماني ولغتنا نقشَ أمهر النُّحات والخطّاطين الضاربين على الحجر بإتقان خيالي اسم الإمبراطور وفِخار أمّتنا الرومانية بهذا الإلهام الشعري.

شُبِّهَ لي أنَّ صوتهُ طفقَ يعلو قراءةً:

من رحم روما يولم المجد.

زارعوه نحنُ في البراري

ناثروه في الوهاد.

حاصدونَ الألق.

مجدُ روما زفير الآلهة، شهيق السماوات

عطرِ روما هديّةٌ للورودِ تشمُّها،

وللحِسان تستحمُّ فيه.

وللشواطئ تلبيةً للنداء.

من على سطح الصرح كان بإمكان الإمبراطور والحاشية أن يجسّوا المدَّ المائي / الأفق المترامي من ابتداء شرقهِ حتى منتهى غربه. وبمقدرة الذائقة الإبحار مع الزرقة الشذرية وصولاً إلى أهلنا في روما.

مغموساً بالشّدهِ استوقفته استدراكاً.

_ لكنَّ الناس لا يعيرونَ بالاً الآن؟

بلا ترددٍ أجاب:

_ هذا زمانكم؛ شأنهُ بأيديكم. أمّا عصرنا فالذي تلمحه كانَ مَعلماً خلبَ سرايا العقول؛ وأججَّ في النفوس طوايا الشجن.. كان حلمَ التوّاقين إلى الحلم. صومعةً ومزاراً كان. منبراً للجمال ومبعثاً استحال. إذا رغبَ أحدنا العودة حنيناً للأهل هناك ما وراء الشواطئ ما عليهِ سوى الاتكاء على ملاسة صخرةٍ أو جدار، ثم التوجّه بالعين صوبَ البحر. هناك تقلُّهُ سفن الذكرى إلى الدروب والحواري ورعشة الاعتداد الساريّة في أوصال الرومان

بالوطن والزحف الإمبراطوري الأثير.. وما تراه اليوم من عدم انتباه أو اكتراث فنابع من مقولة تخص كوامن البشر والذّات تقول " العادة تّبطلُ العبادة ".

تلك المقولة المُستلّة من بطون الحِكَم آخر ما نطق. إذْ تلاشى كالطيف ! [هل كانَ طيفاً؟]..

عادت حركة الخطى تؤوم مسمعي بينما كتوف المارّة تتماس.. أرى إلى البحر فأسمعهُ ينْدهُ بي. أوجِّهُ وجهي شطره. أعود لأتملّى نتفاً من أسرارهِ، لكن جيوش العتمة قدمت من سواتر الأفق كغيمة سوداء وشرعت تلتهم حلوى ضوء النهار، ضامّةً قوام البحر بين جوانحها، تُرضِعُهُ السكون وتهدهدهُ ببواكير أنسام تُقِلّهُ في رحلة كرى تستغرق ساعات نطلق عليها مصطلح " الليل ".

من هذه المفردة تنفتح عليَّ أبواب روائية دعتني للقدوم فرحتُ على ثرى (موبي ديك) ذلك العالم السردي المشحون بالصراع والمشوب بالمغامرات صورة " هيرمان ميلفل " تصويراً يرقى إلى حدود الرحيل العذب، مثلما قدّم " فكتور هوجو" جزئيات (عمّال البحر) الذي كان لهم هذا العالم أبجديّةً وعيشاً يومياً، متماهين مع جنونهِ وهدوئهِ / قسوته وحنانه / بخله وجوده. تماماً مع قصة (الغريق) وهو يواجه حياة مائية – وحيداً منفرداً – تتجلّى خللها غريزة حب البقاء عبر صراع مع قوى مائية ظاهرة ومتوارية، وإبداع ينجزه " غارسيا ماركيز ".. تماماً مع أبطال " حنّا مينا " وأجواء البحر التي

تلفّهم آخذة إيّاهم إلى حومة الوجود وسط تناقض عميم واقتتال تبرز فيه نوازع الإنسان نحو الشر مدفوعاً بالطمع وشهوة الاستحواذ.. تماماُ مع (الشيخ والبحر) و"سانتياغو" همنغواي، الرجل المطعون بتهافتات الأعوام وانسلال المقدرة والقوة من بين ثنايا الأكتاف والأذرع. الرجل الذي أخرس حفنة الشباب الصيّادين الساخرين من استمراره في مهنة الصيد، والمتباهين بفتوّتهم فاندفعَ متحدياً لعرض البحر يصطاد حوتاً مثيراً بحجمه عجزوا عن إدراكه.. ورغمَ أنّ جهدهُ الكبير ضاع بفعل أسماك قرش حالفها الحظ في الهتك ففتكت بصيدهِ إلاّ أنَّ إثبات الوجود تركَ حكمةً ردّدها همنغواي تذكرنا بإصرار سانتياغو، ومعه الذين لا يعرفون اليأس مفردةً تفتك بجسد الإرادة وترديه.. حكمة تقول: قد يتحطّم الإنسان، لكنه لا يُهزم:Man can be destroyed but not defeated.

***

في الليل تتوارى طرابلس لائذةً بلحاف الصمت، باستثناء الشريط الساحلي إذْ يستحيل حياةً أخرى حافلة: الكازينوهات تتولّى إمداداتها فتنتشر الطاولات المستديرة تحفّها الكراسي تمتلئ أحضانها بتفاوت الجُّلاس.

الناس مجاميع وفرادى تتقاطع.. إنها تنفض عنها غبار التعب بعد نهار عمل متواصل، هافيةً إلى البحر تشتري أنسامه بنقود الرغبة.. تتعالى الأنغام من أفواه أجهزة التسجيل بآليّة العشق المبنيّة على سلالم الود أو

الهجران، أو العتاب، أو اللوم أو التعنيف الساري إلى اندثار حب أراده أحد الطرفين دنيّاً فأحاله الطرف الآخر جحيماً... وفي دفين التطلّع إلى ضمور البحر وانضوائه تحت بيرق الحلكة يدنو حفيف خطى، ثم صدى كركرة، ألتفتُ فأبصر طفلاً يمسك خيطاً بطرفهِ الطائر " بالونة " بدت كما لو كانت فقاعة هائلة هربت من فم البحر النائم خلسةً.. يعدو أمام والديه الجذلين لرؤيته يسعد بحفاوة اللحظة.

هتفوا به أنْ يتوقف، لكنّهُ واصلَ الانتشاء باتجاه وسادة البحر

طرابلس

2002.5.28

(*) سياسي وقائد عسكري روماني (85-42 ق.م) قضي منتحراً بعدما اتهمّه القيصر يوليوس بعبارته الشهيرة " حتى أنت يا بروتوس !" يوم طعن القيصر طعنة قاتلة من الخلف واستدار ليرى صديقه الحميم بروتوس يقف بجانب مناهضيه.

(**) إمبراطور روماني (212-275) دمّر مملكة " تدمر " وأسر ملكتها زنوبية.

(***) شاعر يوناني صاحب الملحمتين الشعريتين " الإلياذة Iliad " و " الأوذيسة Odussey".عاش خلال القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد.

(****) مؤلف مسرحي يوناني، يعد من أعظم المسرحيين التراجيديين في الأدب اليوناني القديم (694-604 ق.م).

(*****) إمبراطور روماني (161_180ق.م) اشتهر إضافة إلى حكمهِ كإمبراطور بكونهِ فيلسوفاً رواقيّاً.

الغزالـة / تمظهُراتُ أنثى..

حكايـة نافورة

تمايست النسمةُ تُحاكي جناح التنهُّد.

تسندُ كوعَها على سورِ الامتلاء.

تيرعمَ الهواء..

انثال ِفيضُ الشجن.

ارتشفت من كأسِ إشراقةِ العيون.

وانطلقتْ، غزالةٌ تلتهمُ البوادي.

تحتلُ " الغزالةُ" حيّزاً دائرياً يضمّها والفتاةُ القرينة بهيئة نافورة تتوسّط تقاطعات طرق. تناهضُ البحرَ كرؤيةٍ أزليّةٍ كون البحر ضامّاً لكثيف الأملاح فيما الغزال كالعادةِ – كالمتّبعِ – كالغريزة يهوى الأمواه المازجة

خِضار الأرض بزرقة السماء / يناعة رائقة / بهاءٌ ألِق؛ فلا ترى سطحاً ازرقَ إلاّ كما هو البحر.

الفتاةُ عاريةٌ تتكئ على جانبِ الغزالة، تحتمي بها من غواية البحر _ من نداء الشاطئ – من رغبة اكتشاف سرّ الأعماق.

للفتاة جلسةٌ تتوافق وحمّى الرومانس.. الجرّةُ تحتَ خدرِ ردفها الأيسر، وفيما هي تملأها كان الماء ينسابُ من فمِ الجرّةِ ... فمُ الجرَةِ مُشرعٌ / موارِبٌ / يبدو كما لو كان يتّسع كلّما تفاقمَ ضغطُ الفتاة على انتفاخ الجسد (جسد الجّرة) ... الفتاةُ تتيهُ بين ضجيجِ عُريها وشراسة الولهِ المتأجج في دواخلها.. لم تُعرْ همّاً لشعرها، تركتهُ كما هوَ..

بين الحيوات المسكونة بمر اثون الألوان

وفضائح الهمس

وشبق الأسئلة تنامت

حواراتُ الرحيل.

الطيفُ هجرها، غيّبتها الأُمنية.

إستجارتْ بغزالةِ الروحِ.

للأهلَّةِ سجدت

واستكانتْ لجرارِ الوله.

تملأُ..؛ وتملأ ...

انثناءُ ساقِ الفتاة يعكسُ شبقاً متفشّياً، يأخذُ على عاتقهِ هيئةَ الجلوس مع انفراج حتمي للفخذين بينما ارتفاعُ الذراع اليمنى يُطوّقُ عنقَ الغزالةِ كأنّهُ استنجادٌ لمشاركةٍ أو دعوةٌ لإنقاذ.

الغزالةُ تلمُّ ذيلها..

ينكمشُ الذيلُ بين امتلاءِ ردفيها كما لو كانت ترفض دعوة الفتاة. أو كأنها أرادت بهذا الجفَل أنْ تتركَ رغاوي الانشطار من ديدن الفتاة وحدها.

أنا أجري حسابَ الوصف / تفاصيلَ التأمل ... اغرقُ في ثَملِ النهلِ، وأشرب عبّاً تأوهات اللحظة ... خلفي صفُّ الأشجار وأمامي.. خلفَ انتصابات النافورة / الغزالة لهاثاتُ البحرِ النزق تتّحد مع الأفقِ، وتذوبُ فيه.

قرنا الغزالة يناهضان شمَمِها، إذْ هما يتّجهان لنخرِ خاصرةِ الهواء كيما يُطلق صرخةً لإستكناه شَرَهِ البحر فيما الخطمُ يرتفعُ صوبَ جبهةِ المدينةِ.

القاعدةُ المرمريّةُ_ المستديرةُ _ الخضراء _ المشوبةُ باصفرار عابثٍ تتلقّى انهمار الرذاذ من شتى الجوانِبِ تاركاً للفتاةِ فُسحةَ استبرادٍ تتطلبها الحاجةُ، ويندهُ بها الموقف[قشعريرةٌ مباغتةٌ تخترق أستار الانصهار العذب جعلت الفتاةَ رافعةَ الرأسِ تتجلّى باتضاحٍ هاتفٍ مرآةُ الرقبةِ.]..

تورَّطت اللحظةُ إذْ حطّت على أصابع

الضُّحى.

كانَ عليها أنْ تلثُمَ الرذاذ،

تمتطي صهوةَ الارتعاش

تطرُدَ غروبَ الماءِ

تضمّ حقولَ الجذلِ لمرابعَ

فراشاتِ اللذَّةِ.

كان عليها أنْ لا تأبَهَ لنداءات

السكون.

الغزالَةُ / الفتاةُ / النافورةُ المسيّجةُ بخمسةِ أبراجٍ نخيليةٍ تعيشُ حالةَ الاخضرار والماء، وهي متطلّبات الديمومةِ في الجفاء الصحراوي: البيئةُ

اليقينيةُ لمخلوقٍ رهيفٍ كالغزال حُكِمَ عليهِ أنْ يتقاسم ِوالحريّة العيش بلا تجنّي.

لا مثلبة من أنْ تعرضَ الفتاةُ نهديها.، وتترك لهما حريّةَ البوح بما احتويا. فهما في الامتلاءِ نُضْجٌ، وفي النفورِ ثورة ... ولا غرابة منْ أنْ تكشفَ عُريها لأنَّ الغزالةَ تعبيرٌ فطري، مفرداتي لجملةِ الفحوى [فحوى الأنوثة]، وأبجديّةِ التعبير [التعبير بطريقةِ المعادل الموضوعي].

لا نرى للفتاةِ ملابسَ، ولا ناحيةً يمكنْ أنْ تحتوي متعلِقاتها ... لماذا لا نرى رسناً يطوّقُ عنقَ الغزالةِ أيضاً؟!..

ترسلُ الغزالةُ بصرَها باتّجاه فيض ِ الزروع _ الحديقةِ المنسّقة _ البناء البهي للفندق الكبير، والفتاة ترفعُ عينيها تُقبِّلان هواءَ تطلُّعِ غزالتها [نظرةُ مناجاة / حوارُ شغف]

صفٌّ الأشجار الناهضةُ وخثرة الظِلال يُغريان الغزالة على المجيء، ويستبعدان رغبةَ الفتاة، ولكن لا الفتاة تقع تحتَ طائلةِ الانثناء والقدوم ولا الغزالةُ آثرت التحركَ.. الاثنتان ملتصِقتان. وكلٌّ ٍواحدةٍ تُعلن إسنادها للأُخرى إفشالاً لمرام افصال روحٍ عن جسد.

قائمتا الغزالة الأماميتان مستدقّتان تثبّتهما بلا وجلٍ على القاعدةِ الرخامية، وأنا أتكئ على السور الحديدي الواطئ. أنظرُ، فلا يفصلني عنها سوى الشارع الضيّق، ولا يحجبُ نفورها إلاّ السيارات المارّة تقطع عليَّ

إعجابي وإطالة إبحاري.. أتطلّع فأتملّى وجهها، وأتلمّس حسّاسيّتها النافرة تجاه الدهاء البشري الذي فتكَ بسلالتِها وأقرانها، وأحفادها وراحَ يطاردها في بطون الأحراش ومفازات البريّة.

وأثبّت تصوري على تفاصيل الفتاة فأحصد سنين نشوة وذوبان يتفشّيان خلل الهيكل الغارق في الانثناءات وشغف ينسكب برائحة آيروتيكيّة تشيع في الأرجاء فتثير مراهقاً حالماً يبصرها لأولِ مرّةٍ، وتُكئِّب محروماً لم ينلْ بعدُ حصيلةَ الالتقاء، ولم يسمع زغرودةَ العرس بينما تُضجِّرُ مَنْ فاتهُ قطار اللذَة [أجدُ العديدَ منهم يتّخذونَ الأرائكَ الخشبية تحتَ دكنة الظِلال الرطيبة.].

جاهدَ الفنانُ لرسم حوارات الصمت ونحتِ مناغاةٍ دفينةٍ. لكنَّ المنتصب بتأملٍ وإكتناه لابدَّ سيسمع فحوى الحوار، ويدركُهُ همسُ المناغاة. أمّا الراجلُ، السيّار / المشدوه بتفاصيل اليوم فالغزالةُ وقرينتها لا تُلفِتان / تثيران / تستفزّان انتباهه.. لن ينتبه إلى أنَّ ثمّةَ جرّةً لم تمتلئ منذ تخلّي الفتاة عن عّريها، ولا الغزالة داهمتها جرثومة الملل فصرَّحتْ بالهبوط... إنّهُ الخلود الذي يُعلن سرمَديَّتَهُ، ويثبت للآخرين أنَّ الخَلقَ لا يُفنى، والحياة متقادمة / متقدِّمة، وليسَ لمن يروم البقاء إلاّ الإحاطة باللحظةِ لاستيعابها.

الكاتِدرائيـة

[1]

هيكلٌ مشهدي / نحتي / هندسي / أخّاذ..

فمٌ الله ينطقُ بالصورة: تلكَ هيَ الكاتِدرائيّة.. بها تُبصرُ لمساته، ومن تناهضاتها علوّاً تترجمُ قيمةَ الإبداع البشري.

الكاتدرائية في ميدان الجزائر – قلب طرابلس – بمواجهة أقواس جمالية متعامدة – جوار مكتب بريد عامر.. الكاتدرائية: الرخام الأصفر المطعَّم بمستطيلات ورديّة كالوشم.. النهايات الحادّة / النافرة شبيهة الرؤوس الرمحيّة إعلاناً بأنَّ المسيحيّة كانت تحمل لواء التسامح فحرّفها الراكضونَ باتجاه لهاث العظمة والاستحواذ إلى رماحٍ؛ رؤوسُها نافذةٌ لا توحي إلاّ بالهتكِ المُداف بالهيمنة عبر بثٍ النفوذ بسواقي الدماء.

الوقوفُ من أيّما موقعٍ من الميدان المواجه، والتطلّع يُخبِرُكَ بتاريخٍ مضى وهيمنة لم يَعُدْ لها وجود... ستدهش للبناءات المعماريّة، والإنشاءات الباعثة على الإبهار. ستعجب لأذواق تجمّعت فولّدت هذه الصيرورة الفاتنة... الشوارعُ مشرعة تطلُّ عليها أبنيةٌ تتّخذ نسقاً عذباً وشرفات تعيدُكَ إلى ذكريات مُستلّة من تهافتات الأعوام يوم كنّا نقرأ أدباً قروسطيّا تنسكب من شرفات قصورهِ ومبانيه التأوهات الرهيفة والهمس الدفين لأحبّةٍ كوتهم لواعج الحب، وأقضّت راحتهم جمرات العذاب: روميو وجوليت – رائعة شكسبير الرومانسية / لوران سوريل، القس المتهتّك في " الأحمر والأسود" رواية الفرنسي ستندال / مدام بوفاري لغوستاف فلوبير / كازانوفا وآخرون... سترى كلاماً يتوالى إعجاباً؛ ولكن حشود الإدهاش ستتهاوى مضرجة بوحل الخيبة عندما تكتشف أنّ ما أبصرته لم يُهيّأ لأبناء هذا الوطن، ولم يحسب الباني – مهندساً ومعماراً- حسابَ أنْ يخطو على إسفلت الطرقات قدم وطني،ليبي. بل رُسِمَ وبُنِيَ وكُرّسَ لأجلِ المستعمر: لبناتِهِ وأبنائهِ ونسائهِ كي يرفلوا تيهاً على جراحات وعذابات وآهات المقهورين، المُجبرين قَسراً على حياةٍٍ هواؤها المذلَّة، ويومها البؤس الطويل. ساعتها ستبصق على لوحةٍ مموّهةٍ تُشبِعُها ألوانٌ مغرية، خادعة.. ألوانٌ مسروقة من مهجٍ وأحاسيس وأحلام تعود لغير منشئيها؛؛ وستمد الكفّين لتمزقا – وبتشفٍّ – جوهرها، وشرشف غوايتها. وستدفعها للقدمين لتتوليّا مهمّة سحقها.

[3]

الكاتدرائية حُوِّلت إلى جامع.. الجامع كانَ كنيسة، وكلاهما من بيوت الله على أرضِهِ... ختمُ الإنسان على إيمانه إقراراً بالخشوع / إعلاناً بالضعف. وما الاستمرار في الحياة سوى نتاج رضا الله وقناعته؛ ثم دعوته لكبح التطلّعات الطمعية برموز الإنتهاءات [كلُّ شيْ مآله الانتهاء إلاّ هو].

بيوتُ اللهِ لافتات.

الجوامعُ مآذن / الكنائسُ نواقيس.. تُعلن آذانها / تقرع أجراسها..إيقاعات ربّانيّة: تحذيرية: تبشيرية.

حين استعمر الإنكليز البلدان مدّوا السكك الحديدية وشيّدوا الجسور ابتغاء يُسرٍ يجنونَ من مسوّغه النهب المنظّم. الفرنسيون اندفعوا لتوثيق وجودهم بإشاعة ثقافتهم على أرضٍ يطأونها وشعبٍ يستعمرون. البرتغاليون والإسبان ولعوا بنشر المسيحية وبناء الكنائس، فهل فضّلَ الإيطاليون الوقوف تراصفاً مع الأخيرين؟ أمْ كان لبناء الكنائس غرض إرضاء نزوعاتهم الذاتية وإظهار إيمانهم قناعاً للهيمنة؟! [قرأتُ أنَّ محمد علي والي مصر اضطر لبناء مستشفيات للولادة ليسَ رغبة بتذليل معاناة المتمخضة المصرية بلْ مُجبراً بعدما هددّه الخبراء الفرنسيون الذين استعان بهم لتنفيذ مشاريعه الذهنية وتطبيقها على الأرض بالانسحاب وترك العمل لأنّ زوجاتهم بحاجة إلى دورٍ تضم مستلزمات ولادتهنَّ.]..

[4]

الكاتدرائية: انتصابات تخوض غمار الهواء.. عيون تطلُّ على فضاءات الأرجاء... لن تجد سطحاً واحداً يعرض هندسةَ الامتداد البيِّن. ثمّةَ سطوح متفاوتة صعوداً وارتفاعا. كلُّ انتصاب شاهق إلى أعلى بانتهاءات مخروطية يعطي إيحاءً أو تمثّلاً بإصبع الرب... هيكلٌ يرادف المنارة في تشكيلة المساجد؛؛ يترك انطباعا أنّ الفكر الإنساني مهما تباعدت فروعه تقاربت أصوله.

القُبّة ، آخذة استدارة كروية متشبعة بلونٍ قهوي قطّعتها من الخارج حزوز بيض كي ما تبعد الأذهان والخيال عن كونها نهد يضجُّ بالامتلاء، وحلمة نافرة تنتظر شفاه الارتشاف ذلك النتوء البارز في ذروة القمّة الكروية. [طفق الفنان المعماري إبان العهد العباسي يقدِّم لمساته الإبداعية تنصلاً من قيود مكبِّلة / صارمة تتمثل بالمسارب المختلفة المُقِرّة بأنَّ الفن من ماهيّة الشياطين. ولكون الفن والخلق

لا يجب أنْ يتوجّها بجموحهما لغير الله والدين، ولكون الفنان المشحون والمشحوذ بالموهبة يقف الجنسُ إزاءهُ كأحد التابوات المعيقة يقطع عليه أيّةَ ممارسة ضمن طوق المحرّمات فقد مارس التماهي، وتعللَّ بالتعبير المُبطّن / المغلَّف فجعلَ مشيّدة القبّة كأحد جوانب المعمار الطقسي للمساجد نهداً مرتوياً يوحي للناظر المذكر بتشكيل يبعث على الانفتاح

(ولو بنافذة من ممارسة التذوّق الحسّي للجمال)...كذلك التعامل معه على انّه تكوين ماتع لا يُغفَل (ولو بنظرةٍ تأمليّة تُقِر بأنَّ الخَلقَ لا يخلو من خلقٍ؛ وأنّ الكونَ ماهيةٌ إبداعية تقطرُ فنّاً)... من جانبٍ ترادفي أنهضَ المنارة عضواً ذكوريّاً بكامل امتلائه واندفاعه تهبُ الناظر المؤنث إيحاءات المتعة الدفّاقة باللذاذات الخيالية. وحين التوجّه تتبعاً إلى المنتصبَين القرينيَن تكتمل مشهدية الانفراج الروحي الذوقي – من وجهة نظر الفنان – ويغدو العالم إنفتاحاً طليقاً نحو الرب؛ بلا قيود ولا مواربات. فيُقبل المتوجِّه بروح الرغبة وفحوى الرضى، وتكاملية التقوى... ولقد انطلت هذه الممارسة على الجميع فراحوا يجارون الفنان المعمار دون أنْ يضعوا يدهم على الشيفرة ويفكّوا لغزها.]..

[5]

الأقواس ظاهرة بارزة في المنظور الهندسي للكاتدرائية.. تُرى في أعلى النوافذ ذوات الزجاج الأخضر الداكن والأزرق المزّرق، مثلما في النوافذ الهوائية التي تُركت تضم وراءهُ دكنة تبعث على إثارة استفهامات الناظر.. ماذا تضم، ولماذا تُغلَق؟ ثم ما هذا الدخول العمقي يعيد إلى الذاكرة إستيحاءات الطفولة الفاعلة منذ أعوام على بث التهجّس في النفس الباعثة على تفخيم جمرة الرعب الموشكة على الانطفاء منذ أعوام غدت الطفولة وراءها رؤىً فرّت هاربة.

العتبات السلَّميّة الآيلة الى الباب العريض / المدخل الوسيع تتولّى سعة ملفتة.. لا غرابة.. إنها أُولى خطوات الانفتاح لاستقبال الرب وإيعاز أنَّ سهوب روحهِ مُشرعة / منفرجة.. شيفرة مقصودة / غرض أزلي مرصود. [حين نما الوعي الإنساني شُغل الإنسان بالظواهر.. أُحيطَ بكمٍّ هائلٍ ومهولٍ من الأسرار وشعور يقيني بضعفهِ وضآلة مقدرته حيال قوى خفيّة تخلق المدهشات.. إزاء هذه المعادلة المريبة التجأ إلى استعطاف تينكَ القوى، هو الذي لم يكن يدرك الماهيّة الحقيقية بعد. إلى جانب ما كان يجنيه من الطبيعة بهجةً ومسرّات كان الهلع يدميه ويقضَّ راحته... وفي انعطافات تاريخية متوالية قُهرت محاولاته للطمأنة وتكرَّسَ العجز، ممّا أزاد يقينه بضرورة ألالتجاء. يرمي معطياته في حضن الغيب طمعاً في تضئيل أصابع القهر وتحييد شِباك العسَف. وكان أنْ حيّدَ الكثير من أذرع الجبروت وخدّرهما؛؛ إلاّ ذراع الموت كانت له الغَلَبة..ظلَّ هذا البشري عاجزاً عن الوقوف بوجههِ ولم يجدِ كلّ ما قدَّم وما عمل عليه. صارت هذه المفردة نذير فزع وإيذاناً بـ"الفناء" مع سقوط مفردة أخرى سعى لحيازتها جاهداً اسمها " الخلود " - لقد تعامل (جلجامش) حاكم أوروك في بلاد وادي الرافدين قبل ستة آلاف سنة مع هاتين المفردتين وتمخّض مسعاه عن ملحمةٍ شعرية تخص فحوى الخلق وتتوخى تفسير المآل _ من هنا انبرى لإرضاء ذاته بشعور أنّه سيعود آناً ما إلى الحياة الدنيا مجدداً. فعمل على متطلبات العودة..

المصريون سُكِنوا بالموت فراحوا يوجهون إبداعهم صوبَ هيبته، ويكرسون فنّهم تجسيداً لكبريائه.. بنوا شواخص الأهرامات وصولاً لتخوم العُلا.

السومريون أوجدوا الزقورات معابد شُيِّدت من طوابق ترتقي إلى أعلى كما لو كان إدراكهم العميم يقول أنّ هذه القوى لا تكمن في بطن الأرض بل فوق، فوق.. لها الدكّات والنواصي؛ بيدها القرار والنفاذ.]

وأنتَ تلجَّ الرواق ستبهرك السعة ويحتويك الفضاء المشبّع بأرواح ملائكية تنثّ عليك رحيق بُشرِها، وأرائج طُهرِها. وستُشعِرُكَ غب هنيهات بتفتّت وتلاشي هموم كثيفة كانت تعرِّش فوق هامة القلب وتتفشّى بين جنباته.. ستغسلُ أناملُ الدعة بقايا الأدران.

[6]

في العام 1976 مستحمّين بالشباب نقلتنا رغبةُ الاصطياف سوّاحاً إلى هنغاريا، الدولة الأوربية. ومن "بودابست" العاصمة التي ينصفّها نهر "الدانوب" أقلّنا القطار المنطلق من محطّة (الكَلَتي) وسط المدينة إلى "فينا" العاصمة النمساوية. ولم نكن نصدّق أنَّ انصراف أربع ساعات فقط وبعدها ستدعونا تلك العاصمة العاجيّة الفاتنة إلى النزول.. كنّا قطعنا الأراضي الهنغارية ودخلنا النمساوية دونما توقّفٍ؛ فقط فتحَ باب المقصورة رجل بوليس بملابس مُترفة يمسك ختماً يضربه على واحدة من

صفحات الجواز ومفردات ألمانية يطلقها شفاهاً عرفنا في ما بعد أنها تحية استقبال لدخول الأراضي النمساوية.. لم تكن هناك نقاط حدودية تجبرك على النزول ليتم عندها قراءة تاريخك الشخصي من أول نَفَسٍ تلتقطه من نسم الحياة، إلى آخر لحظة تقف فيها أمام الوجه الذي يحدّق فيك تارة وفي الصورة الملصقة في الجواز تارات. ولن تجيب على سيل أسئلة تُذكّرك بتحقيقات تشاهدها كثيرا في أفلامِ الجريمة والجاسوسية.

وصلنا ليلاً.. وكان علينا التجوال في المدينة صباح اليوم التالي.. تحت إلحاح نزوعنا للاكتشاف نهضنا مبكرين لنفاجأ بالشوارع يحتويها الفراغ إلاّ من أُناس لمحناهم يرفعون حقائب وسلالاً وحاجيات يلقمونها أحضان سياراتهم الشخصية ويتحركون فيما آخرين يقفون عند مواقف الحافلات فتقلّهم إلى أعماق الريف للتمتع بشمس نهارات صيفية انتظروها طويلاً... كان ذلك اليوم هو الأحد؛ فلا غرابة بعدها أن نشاهد المحلات مقفلة. لكن حركة خطى لعائلاتٍ تتخذ طريقاً مفتوحاً ما لفت انتباهنا ففضّلنا اللحاق بهم لعلَّ الأمر يوصلنا إلى أماكن تحتفي بالبشر والمحلات تلبّي اندفاعات الفضول... المرور صامت، والأقدام حثيثة: شيوخ وعجائز ونسوة تصاحب فتية وفتيات؛ والسؤال لمّا يزل يتبارى على شفاهنا ,كذلك شفاه الحيرة تفلت من أعماقنا المنتظرة ردّاً: إلى أين هم ونحنُ سائرون! ولقد انجلى المشهد عن هيكل بنائي ضخم ومتعامد لكاتدرائية تتباهى بهيبتها ومثولها الناجز المُلفت. وبمنظر يشبه الحلم أبصرنا المتوجهين يلتهمهم فمُ الكاتدرائية بيسر.

رهبةُ الدخول كان لها طعمُ الفضول الممزوج بعسلِ الحذر (إنها المحاولة الأولى وأيضاً الأخيرة حتى اللحظة الراهنة).. ارتقينا عدّة درجات من سلّمٍ عريض. اخترقنا عتمة مهابة تغذي رواقاً فضائيا تتفرع منه سبلٌ عميقة ساكنة تنتهي بأبواب خشبية بنّية داكنة. وإذْ قادتنا الأقدام تباعاً / لحاقاً بالذين تقدّمونا وجدنا أنفسنا نلجُّ فناء تضيئهُ ثريات هاطلة من سقف عالٍ تمطر ضوءً ذهبياً وصمتاً يلف مَن اتخذوا هيبة الخشوع راكعين على أركبهم بانتظار ما يفوه به رجل الدين / الراهب المنتصب في المقدمة على مرتفع بهيئة الشمال ارتفع نصبٌ لمريم العذراء تحتضن وليداً أعادنا إلى أيقونات شاهدناها عبر اللوحات المصورة في الكتب الفنية.. وفي الخلف كان للإبداع التشكيلي لمساته المستلّة من مواهب فنانين كرسوا هيجانهم الديني لخدمة الرب.

انطلق صوت الراهب هامساً ثم رويداً، رويداً تدرّج متصاعداً على أنغام آلة " الأورغ" تحتل زاوية يعزف بها رجل ثلاثيني. بعد لحظة شرعت الأفواه التي كانت مغلقة بشفاه الاختلاج ترتل بانسياب روحاني، تعلو وتهبط توافقاً بمفردات يلوكونها من الإنجيل المقدس كما يبدو... دخلنا معهم في المحاكاة وكان علينا أنْ نركع بمثل ما فعلوا ونترك لشفاهنا التمتمة بما لا نعرف من كلام.. تعثرنا بالنغم فتوقفنا تحت سطوة التأمل حتى آلَ المآل إلى الاختتام ووصل القُدّاس إلى صمتٍ يستحم بالخشوع في المبارحة مع القامات الناهضة بعدما ارتشفت نبيذ الرؤيا واكتسبت رضا الإله.

حين تؤدي الطقس الديني / الروحاني، وتنتهي الممارسة ستدرك أنّ الأديان تنهل من منهل واحد، وأنَّ الكنيسةَ جامعٌ والجامع صنو الكنيسة.. وستخرج لتقصَّ أنكَ رأيتِ الله واستقيت وفيرا من فيضه النوراني وتجلّيه كخالقٍ رحمن / رحيم / عطوف وأنك شاهدت على جانبيه محمد وعيسى وموسى ولقمان وسليمان؛ أيوب ويوسف كذلك يعقوب ويونس ثم أعداداً لا تحصى من الأولياء والأتقياء والقديسين والمبشرين والسدنة خدّامه والساهرين على بيوته. وعندها ستحظى بيقين أنّ الدينَ له والطقوس للبشر.. الخشوع كلُّ الخشوع لهيبته وجلاله؛ والرخاء الروحي جُلَّ الرخاء لهم... وإذْ تضع قدمك على أعلى درجة من السلّم ووراءك الكاتدرائية ينتابك سؤال: إلى أين ستسلم قيادك، إلى البحر أم شارع "المقريف" أم شارع الأول من سبتمبر، أم "الصفوة" فكلّها دروب تتوارب من جبهة الساحة التي تعلن وجه الكاتدرائية.

طرابلس:في 4 تموز/يوليو2009

النقيضُ الأمثلُ للعزلة.. مقهى الصفـاء

المقهى: هذا التواجد المكاني المتماهي مع تواليات البناء الزمني يشكل كينونة تحمل مبررات وجودها وصيرورتها المطلوبة... حالة استدّعتها طبيعةٌ غريزية تحكِّم أسلوب البشري في العيش. الحياة تجمّع؛ والإنفراد المستّل من تصرف الانعزال يُنظر إليه على أنّه جمود شاذ.. التجمّع يتطلّبهُ المكان / تستحثُّهُ لحظة اللقاء.

يلتقي الآخرون / يتحاورون بمفردات التواصل اليومي.. الالتقاء وقوفاً أولاً، وعلى أرض لا يحددّها القصد بل الرغبة مرّةً والضرورة مرآت.ثم تتوالى اللقاءات تترى.. التوالي ولّدَ حاجةً تقديم خدمات، فإذا الكيان الناشىء مقهى؛ وإذا اللقاء العابر يطول؛ وإذا الودّ يتمترس والرغبة تتفاقم؛ وإذا النهارات أو الليليات قصائد متوالية وأفواه تبعث الترانيم؛ وإذا المقهى لافتة تُعلن نجاح تجربة الألفة على حساب صدمة الذاتية رديفة النرجسية / الوجه الآخر للتعالي.

***

قد نرى إلى" عكاظ" مقهى برؤية الآن؛ والشعراء _ مثلما المستمعين _ روّاداً.

هنا: يرتشفون الشاي والقهوة الداكنة، والمرطّبات الباردة.

هناك: يعبّونَ الشعرَ صوراً ومفردات، وتبارياً.

هنا: يدخلونَ سجال الأحاديث اليومية التفصيلية، ويفتضّون بكارة اللحظة وصولاً لزئبقية المتعة المرتجاة.

هناك: يعرضون فخاراً بفخامةٍ نارية تُذيب قارات الثلج وتمسك بلؤلؤةِ الرجاءات الواهمة:

ونشربُ إنْ ورِدنا الماءَ صفواً ويشربُ غيرُنا كدراً وطينا

وقد يعرضون الحال حنيناً إلى الماضي / بكاءً على الأطلال:

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيّهم يقولون: لا تهلكْ أسىً وتجلَّدِ

أو يعتلون صهوةَ الكلمات إدراكاً لاكتمالِ التوصيف / تطهُراً في خمرةِ الغزل الشفيف:

نواعِمُ لا تُعالجَ بؤسَ عيشٍ أوانِسُ لا تروحُ ولا ترودُ

يرِحنَ معاً بِطاءَ المشيّ بُدَّاً عليهُنَّ المجاسِدُ والبرودُ

الاثنان: هنا / هناك _ مع اختلاف الزمن _ يشكّلان مقهى بعرف اللقاء؛ إذ المقهى لم يكن تعريفاً مفرداتياً آنذاك فتمثّلت وجوداً ناجزاً ها هيَ ذا.

***

تتفاوت المقاهي انوجاداً وتتباين في أداء الخدمات.. لا تتساوى إلاّ في كونها ملاذات يُلتجأ لفضاءاتها كخيمة اجتماعية لا تثير الريبة، باعدةً عن العسس فكرة التجمّع الرمادي الشَكوك.

في أزمنة الرفاه أو الكساد تُقاس حيوية المجتمع من إحصاء مقاهيه. فكلّما ازدادت المقاهي وانتشرت أفشى الأمر بالانحطاط وموت الفرص. وإنْ نهضَ الوجود البشري صوب البناء والإنجاز ضمر أُخطبوط المقاهي وانكمشت أذرعهُ.

قد تنحاز المقهى لزمرة من الرواد تلمّهم وشيجة جماعيّة أو همٌّ نقابي يتطلّبه الأمر فنبصر مقهى للبنّائين والعتّالين، وسائقي المركبات / مقهى للعجزة كبار السن يمارسون في أبجديّتها وأدَ الوقت / مقهى للترفيه عبر ألعاب" الدومينو" و"الشطرنج"، وقد تتعدّاه إلى" البليارد" و" البنك بونك " / مقهى للكتّاب والمثقّفين والذين يتشبّهونَ بهم / مقهى بمثابة محطة يُريحُ المُتعّبُ فيها ساقيه ثم ينهض ليودّعها بلا وداع.

• في (السماوة) مدينتي الفراتية اعتدتُ الجلوس في مقهى" السيد ياسر".. الجُلاّس هنالك ليسوا حكّائين؛ والحوار الطويل المُفترَض، المبني على أحاديث تستدعي النقاش لا وجودَ لأنفاسه في المكان. فقط السلام وردُّ السلام_تحية الدخول والخروج ليس إلاّ_. الوقتُ المسروق من هفوة الحياة يمنحونه للأراجيل.. الأرجيلة في المقهى المذكورة سيّدةُ الحوار. والدخان المتعالي صعوداً للسقف هو النتاج المتَّبع لمضمون المقهى... الجُلاّس يتحاورون بقرقرة الأراجيل بينما الأذهان طائرة والعيون راحلة في خضم الأفكار... عاملُ المقهى _ مُعِدُّ الأراجيل _ هو الوسيط الأمثل الذي يدرك كنهَ دورٍ يؤدّيه هذا الاختراع السحري مثلما يدرك اهتمامات القيامات الآدمية التي تشغل حيوز المقهى جلوساً على الأرائك.

• في (عمّان) رأيتُ المقهى يتّخذ مكاناً يضمُّ روّاداً _ جلّهم من وطني _ يرتدون معاطف الاغتراب. أحاديثهم شؤون الوطن والأسئلة المتناسلة عن الأهل: ما حلَّ بهم؟.. ما جرى؛ وماذا يجري؟... رأيتهم يتحدّثون بلغة الذكرى والأعشاش التي خلّفوها ورحلوا.. آهاتهم واللّوعات يترجمها دخان سجائرهم / أصابعهم الناحلة، المرتعشة تُفتّت بعصبيّةٍ فاضحة أعقاب السجائر في جوف المنافض. الحلمُ بعرفهم تكلَّسَ. ومسارب الآمال غدت مومياءات ومعابر للمنفيين باتجاه منابت الضياع... ثمّةَ الوجوه مرايا؛ والغضون شروخ تؤثث للأعوام زينتها الرثائيّة.. تضاريس الروح تحكي وعود" انتراكتيكا" الغاطسة أسفل وحول الوهم.

• في (صنعاء) وجدتُ "المَقيل"(*) يأخذُ شكلَ مقهى، والمنتشين بلذاذات ورق القات روّاداً.. وجدتُ أعلامَ الثقافة يوظِّفون "ديوانيّاتهم" للجلسات الثقافية إذْ مقيل الشاعر عبد العزيز المقالح ندوة أدبية مفتوحة. الشعراء يقرأون ما كتبوا؛ والنقاد يعرضون ما استنتجوا. كذلك مقيل الروائي زيد مطيع دمّاج تدور فيه الحوارات / تتساجل؛ والمعارك الأدبيّة التي تندلع في الصحف تتسرب إلى فضاء المقيل لتنفتح بمقاتلين جُدد.. وأيضاً أيضاً اتحاد أدباء صنعاء في "هايل" تقمّصَ مقهى واستحالَ مقيلاً..لا يعتلي الشعرُ ظهر القص. ولا يتبارى الأخير لإلغاء الأول، وليس النقدُ منحازاً لجنسٍ على آخر.

***

مقهى" الصفاء " حديقة مُجتزأة / روض مُختصَر مُشتق من تأثيثات فندق. هندسة مُشجّرة لتضاريس اللقاءات.[لقاءات تتم لويحظات الأصيل تواصلاً مع سويعات المساء / زمن لا يبلغ حدَّ انتصاف جسد الليل.].. نافورة حسيرة تتوسط مستطيل المقهى الأخضر بمثابة اختزال حياة وثّابة تحتضن أشنات خضر دكينة تفتقد الماء الراعف (هل تقصّدَ أولياء أمور الحديقة ذلك؟).

عندما تخلِّف البحر وتقتفي أثر الطريق صعوداً _ مُجانباً الفندق الكبير _ باتجاه المقهى يحتويك الباب الخشبي / القوسي / الموارَب، ويدخلك لتواجه سلّماً صغيراً ينتهي ببابٍ صاجي مزجّج تنده بك محتويات ما ورائه.

[والذي وراءه صالة تفضي إلى حضن المقهى الشتوي حيث الروّاد محبّو الجلسات المدينية.. التلفاز يعلو على رفّ فوق الرؤوس يعرض فحوى القنوات الفضائية / المناضد الناصعة بالشراشف البيض ومنافض السجائر الزجاجية / المعرض الأمامي تقف ورائه الساقية - ثلاثينية خمرية البشرة كأنها أُخرجت من نبيذ أحمر معتّق للتو، طويلة القوام بامتلاء خجول – محضِّرة العصائر، معدِّة القهوة العربية / شلالات النور تنسكب من مصابيح متزاحمة، من ثريّات سقفية وأخرى تتكىء على الجدران تسفح ضوءً برّاقاً تستقبله الأقداح الزجاجية المنتصبة على أرضية قاعدة المعرض الأمامية فتبثّهُ حزماً تهاجم عيون الرواد باسترخاء مُفضَّل.].الانحراف يساراً يعني الدخول من منفذ خفيض وطئتهُ كثافة الزروع الهاطلة من أعلى القوس.

وهنا...

وهنا قطعاً تمسك الأجواء المّفترضة / الفناءات المطلوبة، المستحبّة... وجوه تستقبل ومناضد تنتظر؛ ونافورة تحثُّ على الاقتراب. لحظات غسقية ترتدي نسمات البحر الفتيّة.

النافورة مُضاءة...مصابيح تبوح بلونٍ حليبي / اشراقي تمتصه شجيرات " الشبّو " و" الأكاسيا " الكثيفة الصانعة سوراً يفصلنا عن أعين المارّة في الشارع.. المناضد بيض تجاورها الكراسي المحيطة بذات الارتداء اللوني.. وجوه تلتقي شوقاُ وعيون تفضي تحيات المودّة ممتزجة بارتعاشات

الشفاه.. أرواح مفعمة بالثراء الإبداعي.[التلاقي في هكذا مقاهٍ – في عواصمَ أخرى غير طرابلس – لا تكتمل الجلسات إلاّ بانتصاب قناني النبيذ والبيرة الذهبية، والعرق المستحلّب. ولا يهنأ الجُلاّس بغير صحون تملأها مقبّلات الأّنس؛ لكنّ أكواب القهوة العربية وعلب المشروبات الغازية –هنا- كافية لإضفاء الحميمية وبث عطر البهاء الشذي في نفوس الزبائن، وفوق أرفف الهواء.]..

هنا يلتقي الحالمون..

يتقارب المتحلِّقون..

يتجالس الموتى من المبدعين على ألسنة الأحياء الخلاّقين. تمتزج أسماء أديث ستويل / وليم وردزورث /المتنبي / الطيب صالح / مانيه / نجيب محفوظ / جورج أورويل / سعدي يوسف / أدونيس / أحمد إبراهيم الفقيه / إيتالو كالفينو / الجواهري / جاك بريفير / رامبرانت / السيّاب / أحمد شوقي / غوغول / جوته / خوان رولفو / مفتاح العماري / دالي / جمال الغيطاني / أحلام مستغانمي / (احدّثهم عن محمد خضير ولطفية الدليمي وقصي الخفاجي وحسن النوّاب وجحفل من المبدعين الرازحين تحت غيمة التعتيم في جزيرة منفية اسمها العراق) / ديلاكروا / ميلان كونديرا / سيلانبا.. مقاربات تتطلب السعة، تجتاز المنضدة الواحدة.

ينهض المقرَّبون فتتحد المناضد ويحتشد السجال.

تتشاءم النادلة المغربية (سيضيع عليها الحساب..).

يتفاقم الحوار.. النقاش يعلو.. تبتسم النادلة هذه المرّة. تدنو؛ وفي أذني تهمس:

_ ما لكم والآخرين؟

_ ضربٌ من الهلوسة.. احسبيه هكذا.

ترتد بابتسامة أعرض، وبصفيف أسنان من بَرَد، مع قدْحِ حدقتين من برق. ثم تُنتج ضحكةً لوجه خلاسي مشاكس.

في إحدى لقاءات التعارف في المقهى ألتقي الروائي أحمد إبراهيم الفقيه فيخبرني استقباله ببشاشة تلغي صرامة تحملها صورهُ المنتشرة على صفحات الصحف والمجلات، أو تلك التي احتوتها الأغلفة الخلفية لمدوناته الروائية والقصصية... وتجمعني المصادفة بالقاص كامل المقهور فأكتشفُ فيه خالقاً، تواضعه الثر يسبق بناءه المعماري القصصي الشهير. ألفيه منشغلاً / غارقاً في قضية إثبات براءة متّهمي " لوكربي " / الوطنيين الليبيين كمحامٍ دفاع؛ لكنّه لا ينسى كونه مبدعاً كتبت له ريادة الهمِ الواقعي في مسار القص الليبي.يدعوني لزيارة مكتبهِ فأعده بامتنان. بيدّ أنَّ الزيارة لم تتم لأنَّ شخوص (الأمس المشنوق) سرقوني من لقائهِ بأنانيّة مفرطة وقيّدوني حبيساً طيلة تواجدي في طرابلس.. وهكذا بقي حنيني للجلوس معه أملاً؛ ولو في مقهى.

***

الاحتفاء باللحظة مؤرخةُ اللقاء ومهندسة المعرفة؛ منها يستقي المبدعون مواقفَ حاضرة تيمناً بإبداع قادم.

هي المقهى إذاً.. بؤرة المكان وباعثة عطر المودّة.

منشور صارخ بالحميميّة..

لافتة باعثة على الخلق المؤَجل، وتعانقات الرؤى.

وجود يلغي التلاشي ويهزأ من الفراغ.

يرفض حوارية الموت بإصرار مكين على الخلود.

(*) المقيل: مجلس يلتقي فيه الصحاب ساعات القيلولة، ويترافق اللقاء مع رغبة ممارسة مضغ القات.

(**)" الأمس المشنوق":المجموعة المتميّزة للقاص كامل المقهور.

طرابلس

2002.6.10

ميدانُ الشهداء.. نافورة الأحصنة رافعة الزهرة

تأخذ النافورةُ شكلَ زهرة عبّاد الشمس؛ تحملها رؤوس أربعة لأحصنةٍ تطلق صهيلاً صامتاً يتوارى تحت نثيث الماء المندفع من زُغبٍ نافرٍ يؤلف سوراً دائرياً تحيطه الأوراقُ الطويلة المنحنيّة بتراخٍ هارموني – توافقي – إلى أسفل (هل أثقلها الماء الهامي فترك تجاورها توالد سواقٍ لها انسيابيةٌ تتيح لرعشِ الرذاذ قدرةَ السير السيّال لتنهله القاعدةُ الحوضيّة، وتمتلئ بها مغرقةً جُلَّ أجساد الأحصنة المنتفضة بغية التسلل من ثقل حمل الكينونة الورديّة؟)..

القوائم الأمامية النافرة أركبُها تدلل على جبروتِ الوردة وتجاسدِها – هذا الجبروت الميثي توحي به ميثية الأحصنة ذوات الذيول التمساحيّة بدل الذيول ذوات الشعور التي تخص سواها، وقد بدت الرؤوس مُثقلة بحيث تتراجع خلفاً... أمّا القوائم الخلفية فتماسّت مع الأرض غارقةً في ضجيجِ الماء كأنَّها تواري تهالكاتِها وضعفَها، وتخاذلَ صمودِها.

لولا الخبر الذي أسمعني إيّاه الفنان التشكيلي علي العباني من أنّ نحّاتها غير معروف لجاهرتُ به، وأظهرت دهشةً تعادل عظم دهشتي باشتغالات نحتية عالمية وقفتُ إزاءها ذهيلاً أُرثي ذائقتي التي لا تتّسع لاغتراف كثيف الهيمنة. ورُغمَ إبداعه (ذلك الفنان / المجهول / الناحت / الخالق / السافر / الجذّاب) فقد قتل التميّز المفترض لوجود " العمل " عندما أجرى – حسبما سمعت – نسخاً عديدة له شملت ساحات مدن إيطالية، وربّما تجاوزت إلى ما هو وراء إيطاليا، مهمِّشاً إيّاه / لاغياً أهميته في أهم ميدان من ميادين طرابلس.

ترك الفنان أعين الأحصنة تتّجه إلى أعلى، ولم يجعلها تتطلّع إلى أمام.. أكانت تتضرّع وترجو السماء أن ينقذها من هذا الوطء المستديم؟ أم هي الفقاعات الهوائية المتوالدة ازدحاماً / المتراقصة حبوراً على سطح ماء الحوض وبهيئة نصف كرويّة تقضُّ عليها صمت حملها بدغدغة أشبه بالفرح أو انفجارات أقرب إلى الإغاضة؟!...

المصاطبُ الموزّعة على فضاءات الساحة يقابل بعضها جسد النافورة.. ومن مكاني على واحدة منها ألمح عيني الحصان المواجه لي تنفتحان على تحنّطٍ / تنضحان بؤساً وإنْ تجلّتا واسعتين؛ أما المنخران فهما في أقصى عبّهما للهواء (وإنْ تجمَّد هذا الهواء على رعاف المدخلين).. تتراجع بي تصوّرات الأمس، وتتوالد تخيّلاتٌ أجسُّ من خلال تناميها تنبؤات فنّانٍ بأنَّ عهداً استحواذيّاً ولّى ولن يعود؛ وأنَّ الأحصنة – مدلولات التخاذل هنا -

لن تجدَ شوارعَ لها كي تخب أو تنطلق جامحة على انفتاحات سوحها، وصهيلها الاستعماري / المهيمن.

قلت للشاعر عبد الرزاق الماعزي الذي طاف بي في الميدان ثم أخذني في جولةٍ أثرية في حواري طرابلس القديمة وأزقّتها: تدهشني هذه النافورة؛ فقال: ثمّةَ خمس عشرة نخلة تنتصب وتعلو، هي شواهد لشهداء أرّخت إعدامهم ثبوتية الساحة، وخلّفت لهم رؤى أبدية، وأرواحاً طائفة، ألا تتلمّسها؟...

تتداخل الألوان حول حدود النافورة.. تتمازج؛ ثم تشيع سائحة على تضاريس بنائية اختلفت أزمنة مخاضاتها / تواجداتها.. بتوالي مزيج اللون الرملي الآخذ صبغته من التكوين الطبيعي لحجر، أو التشكيل الذرّي لرمل فنحسّه ينطق على جدران المتحف الوطني وبنائه الناهض الملتصق مع السور الممتد بأبواب قوسيّة مواربة، تفضي إلى حواري طرابلس القرون اللاهثة غوراً فتسمع ما وراء التماعات المصوغات الذهبية صارخة بتنوِّعات وتباينات الأسعار (تحتشد أزقّة السوق بالمحتفيات بجمال يُظهرنَ بعضهُ خجلاً وأكثره يتوارى في الخفاء، ما وراء الشال والأردية. نساء من تفاوت الأعمار يَؤمنَ السوق إثباتاً لتواصل مع فورة الحياة وتأكيداً على أنَّ الشباب ينبغي أن يكون دائما لهن / مسربلاً بهن، وإلاّ ما هذا التزاحم الوفير الذي يصل حدَّ الاحتكاك بالكتوف؛ وما هذه العيون الراهصة بحثاً في جنون المصوغات الضاجّة بفعل رشقات المصابيح التي تفجّر على بريقهنَّ سحراً يصل حدَّ الغواية، ويدرك تخوم أسرهن، فيجعلهن يدفعنَ

الأكف إلى الحافظات يبتعنَ بالدنانير المرزومة قِطَعاً ضئيلة، ثم يخلِّفنَ التزاحم وقد أفعمنَ الذائقات بما يُشبعها، وأوعزن لملكات الأحلام أن تنطلق في سوح الإشباع والتحليق المائي؟؟)..

وفي الخلف يمكن سماع مطارق النحّاسين بسوقهم الذي هو هويّة لهم، وتعريف بهم تضرب على صفائح النحاس لتنتج نماذج من مستلزمات الأمس: أوانٍ وصوانٍ / قدور وأقداح / أباريق ودلال / مباخر ومرشّاة عطور.. مطارق تضرب على الصفيح بتوالٍ تتنغمه تلك التي صرفت العمر في بيتها الذي لا يبعد كثيراً فيذكّرها على الدوام بتلك الأيام الهاربة، أيام كانت كل طرقةٍ تقرّبها من ساعات الاقتران وتحدوها لبيت الزوجية التي حلمت به كثيراً، فنُقِلت - بعد كذا من الطرقات - على إيقاع تصادم الأواني وصليلِها الذي ما زال يُحدث داخلها رعشةً تهزُّ لها الكيان وتدفعها للخروج هائمة إلى صويحباتها اللائى تلتقيهن خارجات هنَّ أيضاً سعياً للبوح وطلباً للإفضاء، فيجمعُهنَّ الزقاق ويدفعُهنَّ إلى اللقاء لتبدأ سيمفونية الحوار التذكّري / الهدرزة المعادة / لغة القص المُستثار بمؤثر / فعل الطرقات اليومية لتصنيع الأواني؛ أو ما نسّميه اليوم تحفاً تتلقّفها أذواق السيّاح، ويقتنيها الآتون بحثاً عن ذكرى تؤرخ ساعات أو أيام القدوم إلى طرابلس...
وفي المقابل / على الجانب الآخر تفرعات شوارع: ميزران / الأول من سبتمبر / المقريف.. ثم ابتداءات روض يانع لأشجار خضر متكاثفة حفَّت أغصانَها نسائمُ الهواء تبوح بظلال يتمازج فيها الأسود مع الرمادي فترى إلى عمق باعث على الإيحاء بالخثرة الرطيبة...

وثمة الأصفر الذهبي يسربل حزماً ضوئية شمسية شائعٌ على هيكلية المكان، غامر الفناءات بغية تشكيل اكتمالية اللوحة حيث النافورة – بؤرة المكان – النصب السارق خطفاً الأنظار الساعية للتطلع...

الأحصنةُ مثارُ انتباه شديد.. تحركٌ دائري سعياً لاكتشاف التفاوت الفني بين الجهات.. اكتشاف يعطي دليل عدم التباين المؤدّي إلى دليل الإعجاب إذْ النصب هو، هو ! من أيّما زاوية تقف عندها / تتطلّع منها... تلك هي إحدى نوافذ ذكاء الناحت التي يطل منها على ذائقة المستطلعين.. ذلك هو الانطباع الخفي لفخامة الإبداع الفنّي.

مساءً، يستحم جسد النافورة / تتندّى الوردة – أوراقاً ومياسمَ – تعوم.. تحلِّق الأحصنة؛ يتيه الماء النافث / الحوض الدافق / القاعدة المحيطة، ثم المحيط بأكمله في فيض ضوئي فضّي يهطل عليها من مربعات نورانيّة تهطل من أعلى، باثّةً إشراقات نهاريّة فيتبدّى للناظر كرنفالاً احتفالياً لا يدع الوردة تنام، ولا الأحصنة تركن إلى السكون... ولا حتى الماء المنبثق يتوقف. أمّا الخفافيش فتهرب. هذا ليس عالمَها. ليس فضاءها.. إنّه عالمُ بائعي الزهور قريباً / على الأرصفة قبالة واجهة المتحف؛ أولئك المُعلَّمون بعبارات الترحاب يستقبلونك ببشاشة عطر الاضمامات التوافقيّة – باقات الجذل – ويتفاءلون لك خيراً بوجهٍ سمحٍ صبوح ستهديه أبهى هديّة، وأجمل ذكرى.

يمتّعك ليلُ النافورة لحظة تتوقّف إزاءها.. ثم يتيح لكَ لمحةً يسيرة تختطفها باتجاه الشمال – جهة البحر - النافورة ستمنحك فرصةَ الاطلاع: أبواق تنفر؛ وعربات تخب.. تجمّعات أعراس تؤرخ ليالي بدء سعادتها [لا مناص من الاقتراب وإنْ بدا الفعل فضولاً. فالزوجان الهابطان من سّيارة مزيّنة بورود ضاحكة وأكف مصفّقة تكمل بأنوارها ابتهاجاتهما دفعاً إلى عربة ملوكيّة مبهرجة يجرّها حصان مزركش، فيما أكثر من كاميرة فيديو عائلية تحركت تصوِّر هذا الحدث الذي أُريد له أن يؤرّخ لأولاد وأحفاد سيأتون ويقيناً سيحدوهم الشوق – يوماً ما – لترجمة حقيقةٍ كهذه ستغدو من عِداد الماضي، واثّبات يعطيهم حقَّ المباهاة بالأسلاف.]

النافورة ستسرُّ لكَ بضرورة التوجه إلى غزالٍ حي _ أحد تأثيثات المكان وجماليته _ جيء بهِ ليكون شريكاً لك في صورة فوتوغرافية يغويك المصور بالتقاط صورةٍ أخرى.. ثم أخرى.. ثم أخرى. وإذا كنتَ من هواة قيادةِ الدراجات النارية فلا تبتئس.. ستدفعك أحصنةُ النافورة إلى الذهاب واعتلاء إحداها لتعرض نفسك ذلك المغامر الجوّال. وستعيدُك الدرّاجة هاته إلى موجةِ أفلام خمسينات القرن العشرين، إحدى صرعات السينما الهوليوديّة..

ولن ترفض _حتما_ الأحصنة إنْ سال لعابُ فضولِك للصعود إلى السيارة الشخصية / الصغيرة / البيضاء التي ستجدها غالباً لتلتقط وأنتَ فيها صورةً تشعرك كمليونير حالم، تنفتح أمامك آفاقُ أحلامٍ ناجزة.. لكنَّك ستعود مندحراً (اندحار الذين ذهلوا فأفاقوا) عندما تتذكّر إنَّ حضورَك

إلى هنا لم يكن لشراء الأحلام (الأحلام التي تناهض حدودَ التصوّر فتمنحك الكنزَ الكاذب)، بل لاقتناء نظرٍحفّزتك إليه طراوةُ الزهرة؛ ودفعتك لتأمل رشاقةَ الأحصنة حاملة فتنة وردة، وكبرياء عمل، غاطسة في ماء استجمام عجَّ ببالونات الهواء وليد الرذاذ المحمَّل برهافةِ فضاءِ الميدان وامتدادِه الفسيح.

طرابلس

2001/4/25

القسم الثاني

رؤيـة

قلادة من الواحـات.. الجفـرة

الجفرة: إيقاع جغرافي متشكّل على اتساعٍ تستفزّهُ شذَرات خضر مموَّهة بسوائل مائيّة تولّدها آبارٌ من مدٍّ سحري يهب طراوةً تقاوم قسوة الجفاف.. ملامح تتعالى فوق قبح الأخاديد واللَّفَح.

الجفرة: جغرافية تتباهى بتضاريسٍ تحمل الأضداد / تجمع نقيض التواجدات. كان لي معها شوط من الزمن؛ وكان لها معي جملة من الأسرار.. دعتني لاختزان صور وأطياف كيما تؤول إلى رؤى / نصوص بهيئة عجينة من لمسات تاريخ مضى، وآخر يحاول تأرخة خطاه.

عندما قيل لي واحة تحركت آليات الذهن لتترجم لوحةً تداخلت فتكوّنت عبر معلومات مقروءة منذ زمن ناءٍ وخيال يحلو له بحكم مقدرته إنتاج صورة جسّدت الشكل التالي: (فيضٌ مائي راكد توشّمه أشنات صفر من النهايات، محفوف بحشائش خضر، تحيطه تبعثرات نخيل يجاهد بتحدٍّ

سحيق ضد لهيب نهارات مستطيلة، صانعاً ظلالاً تلوذ بها شياه تركها صبية يرعونها منهمكين بألعاب طفولية؛ عدّتهم موجودات البيئة المتوفرة.. ومن بعيد يلوح رتل جمال يقوده بدوٌ ملثمون، لوّحت الشمس السخينة جباههم وصنعت دوائر قاتمة حول عيونهم المنكمشة؛ قادمون لقلب المكان حيث درب رملي تناثرت على كتفيه بيوت طينية؛ وبانت بعض الهياكل ترابية اللون بأبواب مواربة جاءوها قصداً. وحين الدنو تمثلت دكاكين تهيمن عليها دكنةٌ بالكاد تُظهر التمر والسكّر، والتبغ والدقيق.. هنا وهناك بالإمكان مشاهدة نفرٌ من سكّان الواحة بألبستهم الأقرب لأزياء البدو؛ يخطون بأنظار تلاحق وجوه وقامات القادمين لغرض معرفة بريئة أو لتمييز _ فضول ذاتي أزلي _ إذْ سيغدو المُقبِلون حديثَ الجلسات الليلية.)..لكن عربةَ الـ"بيجو " التي أقلّتني صحبة ركاب متحضّرين بعدما تركت نقطة تفتيش تطلّع خلالها العسكري في وجوه الركاب بآليةٍ، ثم أعطى أمراً بالتحرّك. عرضت لي زجاجتها الأمامية مشهد مدينة عصرية، ناهضة من جوف امتداد رملي ترتدي فستاناً من نخيل دكين الكثافة مزّقت داخلي تلك اللوحة البدائية، راميّةً إيّاها في خانة التصحيح الواقعي... قال الذي يجلس جواري يرد على سؤالٍ استفهامي:

_ هذه " هون "، مركز شعبية الجفرة.

كان لاكتشاف البترول تأثيره وفعله. وكان لاندلاع ثورة الفاتح التقدمية مهماتها وتوجُهاتها المتسارعة الحثيثة نحو البناء والتعويض، واللحاق بركب الحضارة وإعادة الاعتبار الوجودي للوطن الليبي وإنسانه. فقد

قاسى الاثنان – الوطن والإنسان – من استحواذ استعماري وإهمال حضاري متعدد الوجوه: عاتٍ وعنيف؛ ودفع الاثنان تضحيات تكيننت مصابيح تنير للثائرين الأحفاد مسارات الكرامة المصانة والعز الرسيخ.. ولقد شمل التوجه والاهتمام في البناء والنهوض منطقة الجفرة، مثلما شمل الواحات التي تنتشر حييّة على الجسد الليبي الشسيع؛ مثلما حظيت أيضاً المدن الكبيرة. لهذا سيرى الداخل إلى الواحات والقرى والمدن أنَّ لها وجهين: وجه عصري حديث، وآخر تهالكي قديم. وقد أبصرتُ في مدينة / واحة "هون " ما يعمّق رؤيتي ويدعوني إلى إلقاء شعاع الاستكشاف (..وعندما أتحدّث عن هون كتجربة وانموذج فإنَّ حديثي هذا سينسحب على جميع واحات الجفرة حيث التطوّر العصري ألقى بأمطار سحبه على الجميع؛ والتطلّع نحو الحداثة رغبة ساورت الكل. فالذي حصل في "هون " هو نفسه ما حصل في " ودّان " أو " سوكنه "، و"زلة " و " الفقهاء ".)...

إزاء ذلك كان عليَّ استنهاض شيء من التاريخ، وتسليط الضوء على الأماكن مستعيناً بالرؤى التي تمثّلها شخوص تركت أفعالها بصمات تحكي على قراطيس الزمن وتتناقلها الأفواه: فجاءت " فاطمة عثمان " ناطقة القصيدة اليتيمة المتولدة إثر إعدام كوكبة من مجاهدي هون على أيدي بغض المستعمر الإيطالي.. وجاء " أبو الحسن الودّاني " كشاعرٍ يؤرخ لواحة ودّان حقبة من وجودها.. وفي زلة انبثق شخص " علي الزوّام " الثائر الذي أعدمته السلطات الطليانية رميّاً بالرصاص فكرّمته ثورة الفاتح.. وتفجّرت معركة " عافية " على مشارف " سوكنه " لتحكي سِفراً من أسفار

الجهاد الليبي.. وأخيراً توالدت شخصية " نانا مليحة " لتقص بعضاً من الرد الأسطوري لمتصوفة قاست العسَف تحت وطء عبودية بغيضة... ول" الهروج " جغرافية جمعت الجبل والسهل / الغدائر والزروع / الرؤى والخطى حصّته من جهدي في مضمار العرض والتدوين لا يمكن إغفالها.. وكان إنْ جمعتني دوحةُ الأدب برجالات الإبداع في الجفرة فدخلنا خيارات التواصل ومارسنا فرضيات التحاور ودخول حلبة المقاربات فأيقنت ابتهاجاً أنَّ الثقافة لن تتخلّف عن الركب الحضاري للمنطقة؛ وانَّ الأدب قاطرة خضراء في قطار المجد الليبي منطلقاً باتزان صوب آفاق التواصل الإنساني العميم.

هُون.. واحة ذاكرة

لم يكن دخولي الواحة من واجهتها الشمالية أو الجنوبية. ولا من اتجاهها الشرقي أو الغربي إنما من العام 1928؛ وتحديداً الساعة الخامسة عصر اليوم الخامس عشر من نوفمبر. وجدت نفسي في زاوية مظلمة من بيتٍ حسير تتمثّل ازائي فتاة عشرينية _ صحراوية الملامح _ تتلفّع رداءً محلياً، قاطعةً أرضاً رملية ديست كثيراً _ فناءٌ مربّعٌ أضلاعه الثلاثة تشكّل غرفاً وطيئة السقوف فيما الضلع الرابع جدار تدنو منه _ ومن كوّةٍ صغيرة بسعة وجهها المستدير ترنو فيطفح على القسمات الحادة بوحٌ صريح من كآبة هي بمثابة بكاءٍ صامت.. كدتُ أسألها مندفعاً بعاطفةٍ فيها من المواساة ما يعادل حيرتي وأسئلتي لولا الاستدراك الذي كبّلني... ثمةَ شيء خلف الجدار يثير دواخل الناظرة، يحشد لديها كل هذا الارتباك والتبعثر، ويستثير بنفس الوقت جَلَداً يهيمن على مكامن الدمع، لاغياً مسار الدموع. لكنَّ تمتمةً حثيثةً يبدو أنها غير قادرة على إلغائها وحبسها خلف الشفتين كانت تطلق وجودها نبرات، فأسمع: " خرايبين ! ".. ولم أقبض على ما تبقّى..... تدخل غرفةً شحَّ فيها الضوء. فضولي يتناسل والقلم يبغي تدوين

الحقائق المسبوقة بالدوافع _ ترتمي على بساط صوفي مفجّرة نوبةَ بكاءٍ؛ داعيّةً هاته التلاحقات الدمعية اللاقادرة على إطفاء ركنٍ من غابات الروح المشتعلة / الموّارة. ولأول مرّةٍ أسمع: " خرابين يا وطن !". عبارةٌ كاملة يفجّرها النَّفَس المقبوض فأُدركُ أنَّ الحدث جللٌ مترامٍ، والحزنُ عميم.

أتركها.. وإلى الكوّة الصغيرة أخطو مدفوعاً بفضول وليد.. أغرز وجهي في عمق الاستدارة المفتوح، وأنظر [أول شيء صدمَ تصميمي على المجيء للواحة هو النهار الغائم / الغامض منذ مبتداه.. السماء كامدة، تبقّعها غمامات رصاصية.. الهواء مشبّع بغبار رملي ناضح قَدِمَ بزحوفٍ يبعث الريبة؛ ضجرةً / مائدة بدت، كما لو كانت ترفض ما عليها.. ممتعضةً من حركة أشكال آدمية هجينة / مدجّجة بآليات دمار عابث؛ معيبة عليهم تواجدهم المنفِر].. صورة تراجيدية. مشهد يطفو فوق الواقع بكابوس حلمي يعيد لي لوحات " سلفادور دالي " السريالية.. حدث لا يمكن تجاوزه كأي حدث محكوم بالنسيان.. ارتكابات القرون الوسطى تعود متوالية؛ ومفردات مثل: حبال / منصّات / مشانق / إعدامات... رأيت، ولا أدري من أيةِ حقبةٍ تأتي وتتجسّد أوامر تعتلي شفاه مجرمين عتاة؛؛ ورصاص ينهمر من أفواه بنادق محتدمة بالحقد صوب قامات بشرية ناهضة... أعود إلى الفتاة الحزينة فأجدها ما زالت منكبّة على الفراش.. دفعاتُ نحيب تفلت من وجهها المدفون بحضن وسادة؛ ["أعينيَّ: جودا ولا تجمدا " (2)... وهل بقيَ في العينين ما يُعين.. ذهب النور وانطفأ الروح؛ وها هما الكفّان ترتعشان، لكنَّ صخراً لمّا يزل نغمةً يُرهف لها مسمعُكِ، واسمّاً تعجزُ

تراكمات الأعوام عن محوه... ما لكِ يا تماضر؟!.. ألم يجفُّ الدمع؟.. أما زلتِ تبكينَ " الفتى السيدا "؟.. علّي يا تماضر القلب بالنسيان؛ حجّمي سعةَ اللهفةَ فعكاظُ بانتظار حكمِكِ وحسمك..]. أرتأي عدم استفزازها وإرباكها فأستدير خارجاً... الممر الرملي ينقلني للمشهد الذي تأجّجَ فضولي شديداً لاحتواه.

ثمّةَ الأرضُ مفتوحة. وعلى البعد اليسير أجسادٌ متفاوتة الارتفاعات تتدلّى من أعناقها.. حبال معلقة بقواطع خشبية مغروزة الأركان في الأديم عنوةً.. الأجساد المعُلّقة تربو على العشرين _ هنا تُنتفى الأرقام: الواحد يساوي الخمسين، يعادل المائة _ أقرأهم: العجوز الذي منَحته السنون حكمة العناد الرجولي والحسم الفاعل. آخرون، الفتوّة عندهم نيّرة تبثّها وجَناتهم اللميعة. كذلك اقتنصتُ الموتَ سعيداً يدقُّ طبول الابتهاج. رائحته تشيع مع ما تبقّى من هواء يطفو فوق المكان.. تذكّرتُ الشاعر الجواهري يُعلن كرهَهُ لهذا المارد القميء الذي يلاحقهُ بعدما تناهشَ محبّيه فرداً فأفراداً، يرددّ بضميره المطعون:

أنا أبغض الموتَ اللئيمَ وطيفَهُ بُغضي لطيفِ مُخاتلٍ نصّابِ

ذئبٌ ترصدّني، وبين نيوبِهِ دمُ أُخوتي وأحبّتي وصحابي

نبراتُ الكلِم القادم من عطفات الذاكرة قطعته دمدمات هادرة من خلف الجدار الماثل رجّحتها شهقات الفتاة العشرينية تبوح بهمٍّ عتيد.

أترك المكان.. وبلمحةٍ أقف إزاءها ذارعةً الفسحة الرملية كانت؛ وبانفعال يقرب إلى الهوس عبرَ ذهنها المتّقد؛ ومن نقطةٍ مشتعلة ذاكرتها تعرض حدثاً أنهلُهُ أنا: [صباحٌ مفزعٌ.. وساعات لوّثتها أصابع الشؤم، فاجأتنا دقائقه الأولى بدربكة عساكر الطليان تضرب ثرى الأزقة بأعقاب أحذيتها السميكة؛ وتطعن الأبواب الخشبية بحراب بنادق صلدة.. دعوة جهيرة _ إنذار بخروج _ أفزعتنا همجيتهم أرعبت قلوبنا شظايا الشرر الوحشي الصارخ من حدقات عيونهم الناريّة... طفقوا يسوقوننا جماعات صوب تلك البقعة.. آ.. وقتٌ ثقيل. ثقيل لا يحتمل شهدنا بلحظاته الرمادية تعليق خيرة أهلنا.. الأرواح الطهورة بهية / نضِرة ترتفع لخالقها.. آ] العينان كسيرتان.. الوجنتان شاحبتان فيما الفمُ جافُّ الشفتين يسكب دفقاً شعرياً حدسته أول الأمر هذياناً، فإذا هو روحٌ طليق يتشظّى بلا قيود: همٌّ وانكسار، وفجيعة / عتاب وإثارة حميّة / دعوة إلى نار وعودة إلى تاريخ / استنطاق أجداد يستدعي الحدث المتجسّد قدومهم _ صوت يدور _ مشاعر تتناثر.. أنا أنصت؛ قلمي يحفر:

" خرابين يا وطن ما فيك والي.

وذيلك جوّالي.

والبعض في المشنقة والقتالِ. "

وتتفجّر داخلي ذكرى واقعة (الطف) تتمظّهر رديفةً للواقعة المتجسِّدة حيث " زينب " تقطع رمال " كربلاء " لائبة / ذاوية تندب أباها عليّاً وجدّها

محمّداً كي يحضرا بشجاعتهما وصلابتهما، وسعة تحمّلهما ليغيّرا مسار الأحداث بعدما تناثرت أجسادُ أهلها قتلى بأسياف الجحود والظلم، والتشفّي.. أرى الفتاة العشرينية ترتدي آلام " زينب " بائحة بجرحها الكربلائي. فالمعلّقون على أعواد المشانق أهلٌ أبرياء أحبّوا الأرض والدين وأخلصوا لجهادهم مثلما "الحُسين" وأصحابه. والفاعلون المنتهِكون أترعوا من كأس العسف والكفر والمجون مثلما "يزيد" وحاشيته.

بحركةٍ كأنَّها ومضت في فضاء الرأس خطت نحو الكوّة المستديرة بغية إلقاء آخر نظرةٍ على تفاصيل الخارج لاغتراف مشهدٍ ظنّته سيتلاشى تحت شيوع العتمة وهيمنتها آنئذٍ ستُحرم من الرؤية.

أروم التقصّي سعياً لزيادة المعرفة. راكمتُ استفهامات أيقنتُ سترفضها إنْ طرحتها حواراً، فآثرتُ التريّث. تحينت الزمن وسحبته خلل الأزقة الخيطية للقرية الخالية من حركة الأقدام.. فناءات البيوت وغرفها يشيع بهوائها صمتٌ مليء بالكَرَب، آخذ بالاحتدام، أسمع حواراً بين عجوزٍ وحفيدتها:

الحفيدة تترجّى: لا يمكنك الذهاب يا جدّتي؛ فالنهار انتهى والليل...

العجوز بتصميم: لا أستطيع التحمّل. إنّه ينتظرني.

الحفيدة: لكنهم مزروعون كالشوك في كل مكان.. لن يعاملونك برحمة.

العجوز بانطفاء وبصوت أقرب إلى النشيج: وماذا بقي لي بعده؟

تُحكم شدَّ ردائها وتخرج، متعكّزة على بقايا طاقة ودفق إصرار للّقاء.. تلحقها البنت، تُسمِعها آخر رجاء بالتريّث والاستثناء.. لا جدوى... تشيّعها بنظرات قلقٍ وهي تخلّف الزقاق لزقاقٍ ثانٍ خروجاً إلى الدرب العريض.

كنتُ موشكاً على اللحاق بها وإيقاف عنادها عندما دوّت في الفضاء صدى انطلاقات متتالية.

أخرجِ باتجاه الدوي.. مصعوقاً ألمحُ العجوز منكفئة وقد بقّعت ظهرها مساحةً حمراء عكس جانبٌ ظاهر من وجهها شحوباً، فيما طرفُ عينيها مسدّدٌ باتجاه رجلٍ يتدلّى مع جموع المتدلّين.

عتيمةً تلك الليلة حضرت !!

القمرُ قتيل... هون تكتب تاريخها بمداد التفجّع...

البساتين أكثر تقبلاً لامتصاص السواد؛ لا بل اغترافه كي ما يكون ثوب الحزن المطلوب؛ الانبساطات الرملية لاذت بالارتفاعات المتناثرة تحاكي الأسى محيلةً الساعات مدّاً جنائزياً... الأفق النائي تائهٌ / ضائع / غريب.. في السماء نجومٌ تسفح دموع توهجّها مواساةً لجلل الحدث.

الأجدر تسجيل صغريات الأمور سعيّاً لخلق موضوع يطالعهُ القارئ فترتسم أمامه صورةُ الأشياء مستعرضاً زمنٍ غدا ماضياً ضعفت لاستعادته ذاكرة الأحياء؛ وتضاربت شهادات الذين عاصروه.. صار الترجّل داخل أزقّة الواحة تدويناً لحيثيات رؤى متكرّسة، وأحداث تقطر صدقاً

وتوالياً... من خلال نوافذ حسيرة يندُّ همسٌ هو مزيج من كمدٍ وقلق.. فناءات البيوت تنضح حوارات مبتورة. لا أحد يمتلك رغبة الحديث المتواصل.. لا أحد يجد الكلام وسيلةً لصرف الوقت إذْ في الحلوق غصةٌ، وعلى الشفاه يباس.. الرموش تنثُّ غبار الكدر فيما الأمهات ركنَّ أطفالهنَّ إلى النوم المبكّر؛ والرجال جعلوا من تأنيب النفوس متكآت ومشاريع أفعال يواصلون من خلالها عهداً أقسم عليه الرجال المضحّون هناك...

أخرجُ من همود البيوتات لألتقط أنفاس التوجّه، حيث رقعة تحنّط الزمن.. توقفني قدماي أمام هيبة المكان. أروح أُنزل الرجال المتدلّين واحداً، واحداً.. أجمعهم باستدارةٍ فاتحاً معهم حديث الأحياء أبداً، أُذكّرُهم بالأجداد الذين عبروا البحار نشراً لرسالةٍ هم الآن يواصلون تعميقها. يدنون منّي؛ وبلغة الطمأنينة يمنحون أرواحهم حريّة الحديث، فأسمع كلاماً تفوح منه رائحة الاعتزاز بالأرض والإرث والعرض؛ ثم ينطلقون يتحدّثون عن أعمالٍ لم يتمّوها.. ذلك كان يسعى لجعل مزرعته زاخرة بالنخيل، من يدخلها يتيه بظلالها ونداوة هوائها.. وهذا خططَّ لتكون بئره التي حفرها وألفى ماءها عذباً موئلاً للجميع شرباً واسقاءً لأراضي الواحة بكاملها بينما آخر كان على أبواب اقترانه من ابنة عمّه بعدما سعى وأهله لإكمال متطلبات عرسه.. وآخر تحدّث؛ وآخر ترك لغيره الحديث عنه. وفي غمرة التحاورات أجمعوا على أنَّ الدخيل اغتال أحلامهم ووأد عديد التطلّعات؛ وقوَّضَ خططاً كانت ترتأي جعل الأرض أكثر سلاماً، والسماء أزخر إغداقاً _ هبات فوقية تهطل برضا _ خاطبتُهم بلسان الإكبار:

وقدّمتُ وعداً بأن لا أحد سيتخلّى عن هدفٍ قدّموا لأجله أثمن ما يحتضنون، وأنَّ الآتين ليس لهم من همٍّ سوى مواصلة الجهاد.. سيأتي اليوم الذي تبصرون فيه قاماتكم تبلغ الذرى؛ حولكم أحفادٌ يرفلون بأثواب المباهاة لفعلٍ أدّيتموه سينسجون من نوره خيوطاً لمستقبلهم.

تألقت عيونهم / توهجت.. وبلحظات صاروا ينهضون عائدين لأوضاع التدلّي... ينتهي القلم من طقس الاحتراق بسكب ما تبقّى لديه من جذوةٍ... الفضول يدعوني للرجوع من جديد إلى الفتاة العشرينية.. خاوية كانت، وليدة الحركة _ كان عليَّ أن لا أتركها لوحدها وجرحها النازف، الجارف _ آثرتُ المثول قدّامها أعرض تعاطفاً، وأُفضي بمواساة... حين تحسسّتني لم تُبدِ أيّةَ نأمةٍ؛ ولم تفه بكلامٍ يشير لدهشة؛ بل سألتني كما لو كانت تدرك وجودي منذ تسلّلي لفناء البيت:

_ هل ستدوّن مأساتنا؟.. وهل لديك قدرة جريئة على الوصف بحيث تفي هذا التجنّي فضحاً؛ هل؟..

[وارتفعت السكين تهال طعناً؛ لكنَّ الكف الممسكة تحنطّت أعلى الملامح الذاهلة لذاك الوجه الأنثوي المدوَّر / المُهاجم بصفرة فاضحة، وهو يرى إلى الطفل ذي العام الواحد الذي أحكمت القبضة المتشنجة رديفة كفّ السكين عليه ليكون الهدف الثاني بعدما ارتمى طعيناً طفلٌ عارٍ؛ منكفئاً كعجينة سائلة بينما كفّا الأنثى _ الأم _ الثكلى متلاصقان يهمّان بالدعاء توافقاً مع تينك العينين اللتين اتّجهتا بزرقتهما الشذريّة نحو السماء تجلّت

هي الحامي الوحيد، والمنقذ اللاغير... ولم تنبّه المرأة الثانية التي احتضنت طفلها بدافع غريزي خشية أن يلتفت حامل السكين الثاني محرراً قبضته من اضمامة شعر المرأة الثالثة، الصارخة بفم فاغر / مفتوح في محاولة الهرب من النصل المتحفّز لطعنها من الخلف... كيف حاول " جيودو ريني " بريشته الباهرة وإحساسه الخصيب الإلمام بفحوى المذبحة؟! (مذبحة القدّيسين الأطهار 1611). وكيف كُتِبَ للمرأة الرابعة وهي تجد وضعها أدنى من رفيقتها الخاشعة _ المتضرّعة _ وأقرب إلى عنف وجموح وشرر الحقد المتطاير من فوّهتي محجري المُهاجم الأول؟ ولماذا ظلّت ذراع المرأة الأولى بهذا الارتفاع والتحنّط لتصبح حاجزاً بين اشرئباب السكين وصدر الطفل الرضيع، جاهلَ سرَّ الدائرة / الواقعة؟!] (3)

وارتمت في خضم عبرةٍ خنق أنفاس وطفح دمع، وتحرّك أنامل في هواء أفشى ارتعاشها... مسحت الوجنتين المبللتين ثم عادت تفيض:

_ ألا ترى هذا الجحود المقصود، والعبث الإنساني دون رحمة؟.. هل تظنّهم يحققّون سلبَ الأرض وتدمير الوطن، وإذلال الناس؟

_ يقيناً لا.. هتفتُ. الثورة تفشّت في أماكن شتّى فلن تقف مسيرة الجهاد.

كان الحماس دبَّ في أوصالي وساورتني حالة تلبّس وجدت نفسي سادراً في رغبة كتابة نص تعبوي سريعاً فَهِمتهُ، فقالت:

_ أنت الآن تتخيّل ثمّةَ رسلاً يقدمون من مكانٍ ناءٍ هم بمثابة شهب ضوئية؛ ينقلون رسالة وعد وبدء عصيان هذا صحيح !... راحت تُكمل:

_ وشروع بعمليات كفاح إلى أتباع هنا؛ هنا ينتظرون الإذن.

_ تماماً !

قفز القلم يرتكز بين أصابعي.. ارتكنتُ جانباً أُدوّن لئلاّ تذهب الخلَجات.

_ أُكتب.. أُكتبْ.. قالتها بإسنادٍ وتفعيل...... طفقتُ أكتب:

[سبعةُ أيامٍ والأفراس الكحيلة تضرب بحوافرها يباس الصحراء جاهدةً في اختراق حجب الصهد الصاعد ينضحهُ جوف الأرض.. سبعة أيام والرجال يجمعون العزائم ويكتّلون الإصرار، حاملين الكلمات الوثقى على قراطيس القلوب سعيّاً لنقلها لاهبةً / صادقةً / معافاة؛ نأياً عن عيون الطليان المنبثّة في حنايا البطاح والمدن تشمّماً لرائحة عصيان، وشروع بثورة... طرقوا بأصابع النقر ونبرات الهمس باباً فانفرجَ عن وجهٍ رجولي يبوح ببهجة الوصول سلامةً... صرّحوا بعد هدوء أنفاس: نحمل إليك من اخوانك في الشمال جدح الشرارة فلتبدأ خلال أيام كما ارتأوا.. وتوكّل !... مسحهم بنظرات مشرّبة بيقين العهد تضمر احتداماً خفيّاً، ثم قال: انقلوا سرورنا إليهم؛ وليسمعوا ما يرضي الله ويسندهم.]

ما أن رفعتُ عيني من الورقة حتّى وُجهتُ بنهوضٍ تحريضي ينبثقُ في أعماقها؛ ما لبثت أن جسّدته التفاتات يميناً وشمالاً كما لو كانت تبحث

عن شيء أو جملة أشياء افتقدتها.. أشياء نأت عن مدارها وتروم لها الآن العودة رجاءً واستثارةً.،.. فاهت: بما أنكَ كتبت بعض ما لديك فاكتب اذاً كلَّ ما لدي.

واندفعت تعرض: بكاء وافتقاد وهم ونكد واعتصار وضمور/ عتاب ولوم وتأنيب وخيبة ومرارة / بوح وإفاضة وعرض وتقديم ونثر ونشر / استنجاد واستنطاق وغوث ومناداة ومناجاة ولوب.

ثم: تطلّع وأمل ورؤية وقراءة واستقبال وانتظار ورغبة ووجوب وحتميّة؛ وخاتمة ليوم سيكون: بهيجاً / بهياً / باهراً؛ اتّكالاً واعتماداً على واحدٍ أحد سيجلي ركام النكد. ويعطي لكلِّ حقٍّ مناله..

بدأتْ بـ:

خرابين يا وطن ما فيك والي وذيلك جوّالي والبعض في المشنقة والقتالِ(4)

وانتهت بـ:

ندهتكم يا مشايخ ابلادي إتجو عند بالي في حامي عليهم أكالي

في يوم حامي عليهم إيزر عجاجة أكبر وتفّاح الاسلام كيف المطر

يباتن مطاويح روس الكفر تحت النعالِ هناك نزهه، ويطمان بالي

ينبثق سؤالٌ يحمل جوابه البديهي: " لماذا وعلى الدوام يكون مصير الظالمين / الجائرين / العتاة / آكلي حقوق الآخرين / العابثين بحيوات المسالمين تحت النعال؛ وبين ثنايا مزابل التاريخ العطنة.. مثار استهجان وكره وشتيمة؛ لماذا؟... بهذا السؤال وما أردفه من جواب تمثّلت لي امرأة " ثورة العشرين " (1920 في العراق)؛ تلك التي جابهت المحتل (والمحتل واحدٌ رغم تعدد الهويات.. هنا إيطالي _ هناك إنكليزي _ جوارهما فرنسي) دعت إلى أعاقته واثبات خسائره.. والصورة كما يلي:

عمت عين التجيب اهدان وتكمطه على رجليها (5)

ابني المضغته البارود فاطمته على سركيها

نسيتْ أنَّ في العين دمعاً؛ وتذكّرت إنَّ في القلب لوعة. لوعة من وجود غاصب قدِمَ بلبوس الوداعة ليبتلع الإرثَ ويهتك العرض. إذْ أبصرنها النسوة أكبرنها، ورحنَ يرددّنَ القول.. تشاركهن الطيور والغيوم وهامات النخيل وضفاف الأنهر ومفازات الصحراء.. صار القول خطاباً متفجِّراً، تمثّلَ ناراً أحرقت أقدام الدخلاء وأرغمتهم على البحث عن طريقٍ للخلاص.

شلالات من دماء ورديّة غمرت قلبينا أنا والفتاة، تماوجت لمسمعينا نداءات تتناهى من ما وراء الغيب جعلتنا ننهض، ومعاً نسير.. عند الكوّة

توقفنا.. وجهانا يتلاصقان.. عيوننا من حواف الفسحة الدائرية الطليقة شرعت تتابع ما يحدث... ماذا رأينا؟!...

أصابع سحرية لأكفٍّ نورانيّة شفيفة تهبط من تخوم عُليّة.. مرّت على الأجساد المعلّقة التي سرعان ما استحالت شموعاً وهّاجة / متلألئة، تدور بحلقةٍ دائرية؛ خالقة ضوءً مُشعّاً شكّلَ هالةً من بهاء وألق تتولّد منها حزمٌ شذرية لاصفة أنتجت أرواحاً مهفهفة بأجنحة حلمية فيما الحبال المتدلية والمعقودة تراخت وتهدّلت ثم تفتّتت وبانت خيوطها تواصلات حريرية ناعمة باثّةً في الهياكل النيّرة شحنات ضوئية ضخّمن الهالة ووسّعت حجم التكوين الذي أبصرناه يبرح الأرض محلّقاً فوق خارطة الواحة يسقيها نثيثاً من نورٍ قدسي، ما لبث أن ارتفع صعوداً باتجاه سماءٍ لأول مرّة تبيّناها ترتوي بجموع أصوات كرنفالية رخيمة.. ولأول مرة أيضاً أرى الصفاء يعود لعيني الفتاة، والوداعة تطفو على الوجه الذي صارت عذوبة الشباب ورهافته تكسوه وتمنحهُ نضارةً وحيويّةً ساقتها لإعلان الشعور الصادق بالارتياح، قادها لهدوءٍ بالٍ وانشراح طاغيين.

***

حين عدتُ إلى العام 1999 تحملني أجنحة الكلمات، وجعلتُ أقصُّ رحلتي التي ابتدأتها على مسامع الجالسين معي أخذني أحدهم من يدي. سار بي عبر شوارعٍ حديثة وبين أبنية تعكس لغة العصر حتى أوقفني عند باب عريض / طرقهُ... قليلاً وتواربَ على مصراعيه... وبنظرةٍ دهِشةٍ متفجّرة

كتمت، صوتي وتركتَني أعوم وسط طوفان ذهول عميم.. رأيتُ الفتاة العشرينية هيَ.. هيَ ! ولكن تسعينية العمر تطلُّ من نافذةٍ مشرعة لإحدى غرفِ بيتٍ كبير.

شاخصاً وقفتُ إزاءها فأبدت ارتباكاً وحيرةً.. جمعتُ ما تبقّى لدي من صوت وذاكرة وألقيتها على مسمعها فلم تجب؛ بل ازداد الارتباك وتفاقمت الحيرة.. تنامت بعينيها الضئيلتين استفهامات تنضح شدهاً. بدت كأنها لا تعرفني، ولم ترني قبلاً !!... هل كنتُ واهماً؟.. هل كنتُ متجنّياً أم أنَّ عُظم القصيدة التي قرأتها يوماً ما ولّدت هذا السرد الذي تفجّرَ نصّاً؟!..

تركتُ صاحبي تحت هيمنة الذهول، مكتفياً بذهولي المتنامي؛ وخارجاً خطوت.. على كتوف الحيرة تتراقص أبيات شعر منغّمة تّباهت الذاكرة وتفاخرت بحفظها وعدم ركنها بين نواصي النسيان.

هون

1999/ 12 /22

---

(1) واحة مركزية تتوسط مجموعة واحات متناثرة مثل (ودّان، سوكنة، زلّة، الفقهاء) تكوّن جغرافية " الجفرة ". تقع وسط الجماهيرية الليبية وتبعد حوالي " 620" كم عن العاصمة طرابلس.

(2) شطر من بيت شعري للخنساء لقصيدة تستهل خلقها بـ:

أعينيَ جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

ألا تبكيان الجريءَ الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا

(3) "مذبحة القدّيسين الأطهار " لوحة للرسام جيودو ريني (1575_1642)

(4) نص القصيدة كاملاً. أطلقته فاطمة عثمان كقصيدة يتيمة ولّدتها تفاصيل موقف استدعى هذا المخاض العسير، وتاريخ مذبحة ارتكبها الطليان صبيحة يوم 15 نوفمبر (تشرين الثاني) 1928.

خرابين يا وطن ما فيك والي وذيلك جوالي والبعض في المشنقة والقتالِ

خرابين يا وطن ما فيك هل ركبك الذل اللي ما جلي في المشانق إحصل

عدّوا ولا زول منهم اوصل وباتو امدالي مثل العراجين في راس عالي

خرابين يا وطن ما فيك دايل أمجد بالشغايل وناسه غدو من كلام السبايل

بدمع الانظار تذرف سايل على زول غالي وعده حضر في رقاق الحبالِ

وعده حضر في امقاط البحر وفي يوم زر ودولة العدوان هم الكفر

صبرت يا خاطري ما صبر زايد اهبالي أنا بعدهم يا عرب ما طرالي

خرابين يا وطن ما طاف ضيّه أكمل بالسويّه وراحو مظاليم من غير سيّة

ندهت يا رب يا هاشميّة جيب الغوالي في يوم مبروك يخلص اسوالي

خرابين يا وطن ما فيك حد وحزنك امجد ومن ما عقب فيك غير اللمد

هالمشنقة ما هفت من ولد تحلف هلالي وما خلّفت زول ما ايشالي

خرابين يا وطن ما فيك عيله عدّو جزيلة ولا زول بمواجعي نشتكيله

لي جوف يا ناس مثل الفتيلة سامر ليالي ويا رب اعطنا عليك اتّكالي

خرابين يا وطن ما فيك باقي أجلى انكادي ويبيض القلب بعد السوادِ

ندهتكم يا مشايخ ابلادي اتجو عند بالي في حامي عليهم أكالي

في يوم حامي عليهم ايزر عجاجة أكبر وتفّاح الاسلام كيف المطر

يباتن مطاويح روس الكفر تحت النعالِ هناك نزهة، ويطمان بالي

(5) لا بدَّ من ايضاح معنى البيتين استكمالاً لفهم موقفِ قولهما:

عمت عين التجيب هدان: تفسيرها: ألا عُميت عين المرأة التي تلد شخصاً جباناً.

وتكمطه على رجليها: وتلفّهُ طفلاً بالقماط على رجليها الممددتين وهو لا يستحق الجهد والتعب المبذولين لأجله.

ابني المضغته البارود: ولدي الذي مزّقه الرصاص والبارود.

فاطمته على سركيها: علّمته منذ الصغر على الشجاعة فكان يوم فطامه على أصوات البارود وأذناه بمحاذاة أقسام (سركيها) البندقية وهي تلعلع.

واحة ودّان(1).. في مضمارِ البحث عن أبي الحسن

همَت تلك الغيمة الدكناء؛ وهي واحدة من قطيع هلامي بقّع زرقة السماء وموَّهَ بعضاً من جسدها السمح فسفحت ظلاًّ كان يدب على تعرجات الأرض الباعثة امتداداتها صوب آماد بلا حدود.. والريم الذي دُهِشَ لدكنةٍ تبيّنَ نفسهُ يغطس وسط هيمنتها سرعان ما تكشّفت له كذبةُ هذا الظل عندما هاجمته الشمس بكل أسلحة دفئها ومتواليات أشعتها الضوئية الفيّاضة... قفز سعيّاً لاستعادة خثرة برودة أمّتهُ للحظةٍ ثم انجّلت زاحفة كالحلم.. رأيتُ ذلك وأنا أقود جملاً، وأحثُّ كلباً رسمتهما على الورق ورحت أسير صحبتهما؛ ضارباً باتجاه بريّةٍ ما حولها أفقٌ خلي، وما عليها سوى امتدادات رملية وسلاسل تلال بعضها حجري صلب / أجرد وبعض شكّلتها ذرات رمل طحينية بانتظار هياج ريح ينقلها لاتجاهات تترى، لا تُحد.

كنتُ صرمتُ أياماً طوالاً، نهاراتها من لهب، والليالي مزيج من صفاء سماوي تزيّنهُ نجوم تسفح جسدها تألقاً... أنسام تتكاثف برداً كلّما ولجت رحم

الليل.... التأمل حصيلة انصراف الوقت يخلق تفاقماً. ما جئنا به - طعاماً وشراباً – انتهى؛ والمسوح الرملية ما زالت مستمرة زحوفاً أمامنا / دافعةً إيّانا صوب مدارج الجوع وفيافي الظمأ... جعنا فأكلنا " العرفج " و" العرعرة " و " النوّار "، وثعابين كانت تترصدنا، وأضباب لم تشفع لها جحور حسبتها ملاذات لأمانٍ غريزي.. عايشنا الأرول الرافل، وتابعنا النسور المحوُّمة.. الذئاب سهرت ليالٍ مرابطة على قمم تلال تتابع لحظات انطباق أجفاننا. كذا الضباع بخبثٍ ترصدت سهونا وحيان غفلتنا... ضمِئنا فتعطّفت علينا الصحراء بهذا الريم الذي وهبنا صدق يقين أنّنا على مرمى نظر من عين ماء دفيق، أو ظلال نديّة / رطيبة؛ أو ربّما واحتنا المبتغاة.. صرنا نتابعه... عدا قليلاً ثم توقَّف؛ ثم استدار. ثم كأنّه سبر دواخلنا واستنتج مرادّنا.. طالع اقترابنا. وكان توقّفه لآخر مرّةٍ على تلّةٍ تعلو وبلا حراك دليل بشارة سيزفها لنا ويختفي.

ما أن ارتقينا التلّةَ وتوجّهت أنظارنا باستقامةٍ حتّى تكشّفت الأرض التي أمامنا مدّاً من اخضرار بهي.." تلك هي ودّان." (2)

لم يكن الجامع الذي واجهني عند أول الخطى إلاّ بناء من طوب؛ ولم تكن قبّته بالحجم الذي يشير إلى أنّه كذلك (لعلَّ عديد القمم التلاليّة الناهضة عن قرب استحوذت، فأربكت)، والدرب الذي قصدتُ سلكهُ صعوداً إلى باب " منذرة "(3) حيث مدخل القلعة البانية بيوتاتها بطريقة الحدس الجيّاش من طارىء عدائي يمكن استبيانه من بعيد...

ربطت الجمل عند جذع نخلة طارفة، وتركت الكلب يقعي بالوصيد، متخّذاً درباً يقرّبني من شخص أستفهمه؛ تاركاً حقيبة أوراقي في الخرج المتكىء على سنام الجمل... تحركتُ معتمداً على قراطيس الذاكرة المهيّأة للتدوين جاعلاً ذائقتي تنحو باتجاه الزمن القديم رسماً لمشهد غدا من حكايات الغابرين.. أدخله استنطاقاً لرجالات تركت آثار كلماتها على ثرى الصحائف الزمنية، فأبحث عن ذلك الرومانسي الغارق في تداخلات هيجانية من العاطفة التي لا تفرّق بين النجوم المحتفية بانسكاباتها النورانيّة وجوق الصحاب الراقصين على ثمل اللقاءات المائيّة / المسائية.

أضع خططي الشفاهية وصولاً للقائهِ، ووقوفاً أمام عينيه الحالمتين / ناثراً أسئلة الدهَش:

- أحقّاً أنتَ أبو الحسن الودّاني؟!.. أصدقاً أنتَ القائل: " من يشتري منّي الزمان بليلةٍ // لا فرقَ بين نجومِها وصحابي "؟!.. أتعرف " جون كيتس " الشاعر العاطفي الإنكليزي؟!.. أأنتَ من وهبهُ مفتاح الرومانسية ليدخل بأعوامه الستة والعشرين بستاناً لم يكتشفه أحدٌ سواك؟!.. أم أنتَ الذي همست لـ " بيرسي شيلي " صديقهُ القرين موعِزاً إليه أن يكون شريكاً في كتابة العالم بذاتيّتكَ الماثلة، لا بذائقته الحالمة؟!...

في الطريق؛؛ مَن سألتهم لم يُبدوا جهلاً، ولا توالدت ثمة استدراكات على الشفاه رغم أنّ جُلَّهم من الفتية أمّا الكبار فانتفضوا لكوني أتحدث عن شاعر واحد فقط بينما الواحة تضم شعراء يتجيّشون (4). عرضتُ

اعتذاراً، وتعلّلتُ به كفاتحة للولوج إلى مشهد معرفي يلمُّ جملة الطاقات ويجمع اضمامة الأجناس الأدبية قصداً: اعتماداً على لغةِ تفاهم شاملة (أولّها لغة القص التي ينبغي أن تمارس معها غواية التماهي كي يأتي هذا السرد للحكاية مقنعاً... نمسك بتلابيب المعاني العصيّة / نطوّعها لطاعتنا، ونسكب على جسدها جذوة انفعالاتنا وضجيج احتراقاتنا كي ما ننتج فستاناً يجمّل قوام النص الذي نقوله، أو الذي نسمعه أو ذاك الذي يتداخل في تفاعلاته الكلم المنحوت مع الإنصات المهيمن... وآخرها مفردة الشعر – هذي البؤرة السحرية / النبوءة التي من البله تجاوزها أو نكرانها.. نبحث عن لمساتها للعثور على ذواتنا). قلت: " لا تأخذوني مأخذ الجهل فلي معرفة برجالات الواحة لعلّ أحدهم من رددّنا شعراً شعبيّاً له يقول:

أحوال حايلة ما بين المنام وطيبه

أحوال جبدهن للناس فيه العيبه (5)

كما أنَّ لنا حكاية نعيدها على مسامع أبنائنا عن شجاعة ذلك الذي كان يرتدي ملابس النساء تمظهراً بجمع الحطب من مواقع تحاذي معسكر الطليان (المعسكر الجاثم على أنفاس الواحة / الواخز خاصرة الوطن) جلباً لمعلومات ستفيد المجاهدين في إنجاح خططهم، عارضاً روحه فداء لأمرٍ يعزُّ فيه أبناء البلد، وتذلُّ فيه كرامة الأعداء.

كانت القلعة تعيش محدودية هياكل بسيطة. طوب وحجر / سطوح وطيئة / دروب ضيّقة متعرّجة / أبواب تقابل أبواباً.. تجاورها / نوافذ

خشبية حسيرة (لابدَّ أنَّ دهاء الصحراء وساعات جنونها الريحي ونفثات رمالها المتتالية حتّمت تحجيم هذه النوافذ؛ مثلّما عملت على تجميع هاته البيوتات).. البيوت حقّاً بسيطة، والحياة تكاد تكون بئيسة.. من أين أتت –إذاً- تلك النفحة الرومانسية للرجل فأطلق رسماً ذلك المشهد الشعري موحياً بحياةٍ غنّاء كان يعيش انسيابيتها؛ وهناء تفصيلي كان يمارس جزئياته، هو القائل: " دارت على فلكِ الزمان ونحنُ // قد درنا على فلكٍ من الآدابِ ".

أتّخذُ طريقاً منحدراً يخرجني من (باب السخامي) بعدما أبرح القلعة وما تضم من بيوتات الطوب ذوات السقوف المعمولة من جذوع النخيل وسعفه، وتشابكات الدروب الصامتة لأجد نفسي وراء السور الرملي اللون.. الممشى رخوٌ منحدر. على الجانبين أجمّات خضر تتناثر مقارعةً سحيق الرمال، مجافيةً كثيف الموجات العاصفة بتقادمات لا تعرف الكلل. لكأنَّ الصحراء مهجٌ من مؤامرات محاكة لإنهاك جسد الواحة قصداً في وأدها عبر الطمر ومحو التضاريس؛ لكأنَّ الناس المنتفضين عن بيوتهم صوب مزارعهم آلوا على أنفسهم إلاّ مواجهة هذا المحسوب الدائم.

انشطر الطريق وتبعثر دروباً.. كلٌّ آخذ إلى مدٍّ زراعي تطفو فوقه تيجان النخيل تغدق ظلالاً دكينةً على خلقٍ كُتب عليه أن يعلن إثبات وجود، واهباً للذين أوجدوه مسببّات الاستدامة. ولكي أختار وجهتي استعدتُ استرجاعاً إشارة من استفهمتهُ عندما كنت داخل القلعة واستقامة نظرته المصوّبة لحظتذاك للموقع تحديداً.

وكان أن دخلتُ بستاناً رسَمَت حدوده تراصفات سعف متيبس أعاق تواليات هجمات رمال شكّلت سياجاً يعطي حدوداً ماثلة... ثمّة امرأة يسربلها رداء علّمته خطوط عمودية بيضاء عدّلت قوامها المنحني المنشغل بجزئياته خدمة الأرض، واستدارت تترجم صوت تكسّر منتظم لعيدان يابسة كنت أطأها... تفرّست بعين الذي يشاهد غريباً لم تتلقّف أرض الواحة خُطاه قبلاً.

خليقٌ بي أنْ لا أسقط في براثن التقريرية فأكتب تدويناً الحوار الطويل الذي بدأ بالتحيّة المصحوبة بجملة تساؤلات متوقعة استفهامات بقصد إلمام بحال، وانتهاء بدعوة إلى البقاء ضيافةً. لهذا أقتنص الآن ما قالته بإشارةٍ من رأسها:

- ستجده هناك.

جوابُها أترع قلبي بيقين تواجده؛ إذْ لم أستشف استغراباً ينبجس على قسماتها.. والكلام الذي يخصّه جاء من باب يهب الكثير من المودّة... ذلك أفعمني ببهجة اللقاء لذا رحتُ أوسِّع الخطى غير آبه لانغراز القدمين في رخاوة الأرض / سائراً على هُلام فكرة مواجهتِهِ / عائشاً لحظة تفاصيل استدراجه إلى حومة الإفضاء / مُعدّاً حفنة استفسارات تقود لرسم حيثيات ماهيّة رجل شاعر لا توحي هذه الواحة المنعزلة بالوحدة / المحاطة بجفاء صحراوي متربّص يبعد رأي حضور بشري هادف للعيش ما

تبقّى من العمر بتأجيج مخيلة، أو ترتيب عالم مُحمَّل بأجواء خلق الرومانس.

عندما قالت " هناك" تذكّرتُ أنّي جمعتُ في جعبة التصوّرات وأنا بوجهتي صوب ودّان سأجده يعيش بين جوق ندامى، في مجلس تتناثر الأقداح على أرضيّته المزدانة بسجّاد " كاشاني " نقشته أيادٍ حاذقة وأذواق رفيعة.. على الجدران تتراقص مفردات المتعة المعتّقة برائحة ودٍّ رائق وتحليق شعري عذب حيث الليالي / الأنوار / القيان / أنغام عود شجي، وضربات دفوف تتوافق مع خفقات القلوب على إيقاع تحليق المشاعر وخفّة الروح، وانبثاق الأدب.. خلته سيسألني عندما يستقبلني استقبال ذوي الإبداع: " من أنت؟ " فاستحضرتُ جواباً يقول: " أنا يا سيّد ابن رجلٍ صرف عمره يبجّل المحترقين لأجل غيرهم. يقارع الجمود؛ يقدّس الكتاب، ويرى في الحرف أبجديّة للنور والبصيرة. ينتقل بين مدنٍ حاضنةٍ للعتبات المُقدّسة، تائها بين زحام مكتبات غزيرة تعرض أرففها الصاعدة – تحاذي السقوف – كتباً تجمع متضادّات الآراء الدينية والفقهية.. بين الميتافيزيقيا اللامتناهية بدعاتها ومعتنقيها اعتماداً على غيبيات مطلقة، مطلقة؛ وبين ماديّة يمظهرها الداعون إلى فهمها والتعمّق في بحورها ثم إدراكها تحليلاً لفلسفة كانت غائبة أو شبه مغيّبة تناهض الغيبي وتلغيه... جئتكَ يا أبا الحسن من أقصى مضارب الشعر، من قومٍ يرتكبون الكتابة ويستعذبون الاحتراق في محراب الكلمة.. جئتكَ من حلّبةٍ لا بدَّ أنْ يُقتَل أو يُعذَّب في مضمارها شاعرٌ كي ما يستحيل المتفرجون - مستقبلاً -فرساناً للشعر... لا

تؤاخذني إنْ ألغيت الجغرافية مستعيضاً عنها بتضاريس الكَلِم... يوماً ما كنتُ أحد المتفرجين. أردتُ كتابة الشعر فوجدتُ نفسي في القصّة، مع أنّي أعشق الرواية.. ومع ذلك ما زلتُ أحنُّ إلى الشعر.. ولكن !!! لي سؤال قد أصطاد جوابه من بحر معرفتك:

- لماذا يترك عديد الشعراء مرفأ الشعر إلى شواطىء الأجناس الأخرى مع أنَّ الشعر أشد بوحاً وأقدر على استكناه وتجسيد الذات؟... قليلاً وبددّتُ السؤال عندما تذكّرتُ شهادةً أفشتها أحلام مستغانمي (6) عارضةً فيها تركَ مرفأ الشعر إلى بحر الرواية بجرأة يتهجّسها الكثيرون ويحسبون للعواقب، قائلةً:" اتخذّتُ قرار التخلّي عن الشعر خشيةَ أن أصبح أدنى منه.. أنْ تحترم الشعر حدَّ الاعتراف في أول خيانة له بأنكَ لم تعد شاعراً هي الطريقة الوحيدة لحفاظكَ على لقب شاعر ولو بينكَ وبين نفسك. فإذا كان لا شيء أكثر سطوة وواجهة من لقب شاعر فلا شيء أثقل حملاً ولا أسرع عطباً من هذا اللقب. "..

بعد انتشال نفسي من يم التداعي وجدتها هناك إزاء تشكيل زراعي أخضر / بستان ظليل؛ دخلتهُ.

دخلت....

الجو تترعه سخونة ظاهرة، أضفت على الأفياء العميمة / المنحدرة بعمق المكان جفافً يطيح بأيّ ما نسمة رطيبة تاركاً عصافير فرادى تمارس فعل

القيلولة بضجيج خافت، وفاختات تطلق حنيناً متهدّجاً.. الصمت يبغي تسيّد المكان.

كان البحث عن مظلّةٍ اعتاد المزارعون عملها قدوماً للاسترخاء تحتها بعد سِفر جهدٍ ثقيل. وإذْ تطلّعتُ من بين قامات النخيل ألفيت تلال ودّان بعيداً ترسم قلادة توزيعها على مدى شمالي بانتظار رسائل البحر التي بهيئة سحابات متتالية حين تدنو يتنفس السكان الصعداء متفائلون بقدوم تحسّن مناخي يقيهم رتابة جثوم الصهد، وسرابات الماء الخديع... استرجعتُ شتات معلومات قرأتها عن ودّان الواحة، وأنا أقف هنا لأبعث بنظراتي تستطلع مثول القلعة وانتصاب الارتفاعات الأرضية فأتخيّل ثمة الحياة المطمورة الآن أدنى القلعة وفي بطون التلال. لقد قرأتُ أنّ للودّانيين القدامى طريقتهم الخاصة بدفن الموتى. إذْ لم يعرفوا التوابيت الخشبية في ضم الجسد الهامد؛ ولم يكونوا يستحسنون تسجية الميّت بل لهم طقسهم البدائي الفطري الجميل حيث يهيكلونه بوضعٍ جنيني في تنّورٍ فخاري هو بمثابة رحمٍ أرضي بينما يجعلون الوجه باتجاه الشرق حيث الشمس يوما ستشرق لتعيد له البِشرَ والضوء والحياة، تماماً كما كان السومريون يظنون فراحوا يتركون لموتاهم الألبسة والغذاء حسباناً أنّهم سيعودون إلى الحياة الدنيا. وحتماً كما خمّن الفراعنة عندما أوجدوا مهارة التحنيط سعياً لهناءةِ العائد من العالم الآخر وإراحته.

من بين كثافة ظلٍّ متخثرة لمحت رجلاً يفتضُّ همود شجيراتٍ ساكنة... هتف قلبي:

- هو ذا أبو الحسن.

لكنَّ الرجل المتوجّه – يقيناً إليَّ – بادرني بالقول تفاؤلاً:

- أتراك سائلاً عن أبي الحسن؟!

طارت دهشتي صوبه على أجنحة خطأ الظن.. أجبت:

- حسبتهُ أنت!

ضحك، وقال:

- كان معي قبل قليل.. كنّا معاً. تناولنا الغداء من "زمّيطة" عملتها يده.

كدّتُ أسأله عن أوصاف تمنحني رسم ملامح مقاربة له سعياً لمطابقتها لحظة التقائه. لكنه قال:

- إنْ لحقته بخطى سريعة لن تفقده.

شكري الممزوج بعرفان الاقتراح قصّرَ زمن بقائي إزاءه... تحركتُ مندفعاً؛ تاركاً البستان خلفي لحاقاً ببستان قريب ربّما ولجهُ...

أبصرتُ آثار خطاه / سمعتُ وتيرة أنفاسه. بيدَ أنّي لم أره قواماً ماثلاً.. لم أعهدة تجليّاً. والبستان الذي أدركته ما أسعفني بمطابقة موقع يتيح لي برهةً فرصةَ نجازة واقعٍ قرأتُ عنه.(تبقى جدلية المكان رمزاً لإثبات الوجود. فليس من الشك أنّ العدد الوفير من الشخوص الإنسانية

جسّدت أدوارها الفردية على ساحة الأحداث عبر التاريخ فعرفنا أبطالاً شكّلوا انعطافات بارزة في المسار الحياتي بحيث صارت لهم مواقف يُشار لها، أو أقلاماً تُدوّن عنها. غير أننّا لا ننسى – أيضاً – أنَّ الكثير من الأحداث أُرِّخَت بأماكنها فاستحال المكان بطلاً، مقرونةً جزئياته في ذاكرة الأجيال.)..
دخلتُ البستان ثم برحته !.. دخلت آخرَ ثم تركته.. رحتُ أرمي شباك لومي على نفسي، وأسأل: لماذا لم أطلب من أحد مصاحبتي وتقديمي إليه؟.. ثم ما هذا الإلحاح في التعرّف على فرد] ربّما يكون محمّلاً بمشاغل لا تيسِّر له وقتاً فائضاً؟ وقد لا يكون ممّن يرتضي لأحدٍ اقتحام بوّابات خصوصياته، وتحطيم سواتر أسراره؟.. ثم أُقرُّ مراراً أنّ ما نرسمه كرؤيا لأناس لم نرهم تبقى أجمل وأحلى وأكثر إدهاشاً من حقيقتها الماثلة !!.. شخوص نوجِد لها ملامح ننتقي رتوشها من احتدام المخيّلة وتهافتها على إيجاد ما يتوافق وأذواقنا لا ما ينطبق وخلق المكوِّن؟.. ألم يكن " سانتياغو " بطل رواية " الشيخ والبحر " لهمنغواي المرسوم في المخيلة أكثر تجسيداً من الذي مثّلَ دوره في الفلم الحامل للاسم نفسه؟!...

لا يهم ذكر مَن قال ذلك هو بستانه فقد اجتزتُ الممر الرملي المتماسك قليلاً، ورأيتني في كيان أخضر يعمّه صمت تتوازى سمته وساعات الظهيرة.. جالت العينان تبحثان: أين هو؟... أين السقيفة المغدقة فيئاً رطيباً؟.. أين العصافير والكركرات الباعثة على تأجيج دواخل الشاعر، ودفعه لاستعذاب موحيات الطبيعة؟.. أين الباحة التي من خلالها صرف يحادّث النجوم ليلاً ليعيد ترجمة السفر التحليقي؟.. أين الصحاب ومَن

نادى بهم فجعلهم على تكافؤ صارخ مع النجوم.. هي في أديم السماء، وهم على ثرى الواحة؟!...

لا أحد ادّعى بكونه أحداً منهم فأخذ بيدي، أو وصف لي تضاريس لقاءات الإلفة !!ز تُرى أمن قصدت شخصيّة وهمية مُختَلَقة؟.. رجل جسّدته مخيلة مكتنزة، منشطرة لمبهمٍ طوته الأرض وتهالكات القرون؟.. مُبهم شاعري استحال عنده " اللاقبي "(7) المُحلّى إلى سائلٍ خمري أغوى حُرّاس المشاعر فأدخلوه حومة ارتكاب خطيئة الشعر خالقاً حياة لا أثر لها.. كيان متخيّل / وجود مرسوم، مصطنع؟!.. إنْ كان هكذا سأضمّه لقائمة المشكوك في كينونتهم كبشر مبدعين حازوا توهّجات غيرهم دون قصد. بمعنى أغدقت عليهم السنون اللاحقة بعد مماتهم ذكرى ليست لهم.. ذكرى وهبتها ذائقة صنّاع مجهولين أرادوا لوجودهم – الضمير يعود على الصنّاع – صمتاً خشية الانتقاد أو كرهاً لظهور... هل أبو الحسن الودّاني كقيس بن الملوَّح، حيث الشكوك تُعرّي امتلاكه للشعر وتبعد حبيبةً قال فيها الغزير من الإفضاء والتمنّي والترجّي فلم تعد هناك " ليلى " بل أسطرة ذكيّة الحبك لتقديم الشخصيّتين؛ ولم يكن ثمّة " أُقبّلُ ذا الجدار وذا الجدارا "؟.. أتراه كشكسبير ذلك المهمل المهمّش / الكومبارس لفرقة إنكليزية محلية مغمورة؛ والشكوك بكونه كَتبَ مهولات الإبداع المسرحي حيث الدليل خلو بيته من كتابٍ يقرأ فيه أو مكتبة يستقي منها مصدراً لركام التدوينات الموسومة باسمه، بأفكارها وأحداثها، ولغتها الشعرية العالية المستوى؟.

ظهر لي شابٌّ قال بكثيف التحيات الودود:

- ذهبَ أبّي توّاً..

وقبل أن أهبَّ بسؤال نفاذ الصبر، أكملَ:

- كعادته اليومية. يتركنا هذا الوقت ليتّخذ طريقه إلى المسجد.. هناك.

التفتُّ.. المنارة ظاهرة تبزغ من ارتفاعات رملية ترابية هي أدنى من كونها تلالاً.

- ستجده في باحة المسجد.. أنتَ لستَ الوحيد الذي يجيء ليسأل عنه. الكثيرون قدِموا. ستكون هذه الليلة ضيفنا.

أعرفهم دُخّال المساجد. يلجّونها عصراً فلا يخرجون إلاّ وقد أتمّوا صلاة العشاء.

إذاً سألتقيه.....

كان المسجدُ فارغاً تماماً إلاّ منه.. جالساً أبصرته جنب المحراب... الظهر ضيّقٌ / منحنٍ تزيدهُ انحناءً طأطأةُ الرأس واتجاه الوجه – الذي لم أتبيّن ملامحه – لقرآن كبير مفتوح تتفاعل على أوراقه البُنّيّة العتيقة نبرات الترتيل الخفيض بالكلمات المنحوتة الرسيخة... الضوء الشحيح المتفشّي من نوافذ حسيرة على أعمدة وأرضيّة المسجد تدفع الرأس إلى الانخفاض أكثر بغية التقاط رسم الحروف فيما يزجيني إلى خيبة عدم إبصار وجهه؛

والعمامة الكبيرة فوق الرأس أظهرت لي تأكيد صغر حجم هذا الرأس.. كذلك الظهر بان مرآة لقامةٍ نحيفة غير التي رسمتها على مرآة الذاكرة وفضاء المخيّلة... كدتُ أنده به:

- يا أبا الحسن؛ هل لي بالتفاتةٍ ألمح من خلالها وجهك لأطابق توافق قسمات خلقتها لدي؟..

كدتُ أقول:

- دعني أكلّمك ولو للحظات... هَب لي إجابات حتّى وإنْ كانت مبتورةً لاستفهامات قلّصتها إلى سؤالين لا أكثر: هل حقّاً عشت الليالي الطليقة، وتمنيّت مرّةً بيع الزمان بواحدة من تلك الليالي؟.. هل أنت السادر في القول: " وأتى الصباحُ ولا أتى فكأنّهُ // شيبٌ أطلَّ على سوادِ شبابي "؛ أم أنت كالشاعر "الحبّوبي "(8) الذي قال ما لم يفعل؟.. أغوانا بسحرِ أجوائه، وعذوبة خلجاته فبتنا نتشبّه به، آخذين بوح الكلمات وجزئيات الصورة مأخذ الجِد والواقعية؟..

الانهماك المتواصل في القراءة والترتيل صنع رغبة الانتظار خارجاً؛ متأملاً فناء المجد الذي دفع بي هو الآخر للخروج تطلّعاً في المديات الشسيعة للصحراء بحثاً في قرارة النفس عن قناعةِ الإنسان بعيشٍ يحكم هويته ومكان كالعُش لا يرتضي دونه حتى وإنْ رفلَ على فضاءات سهوب غنّاء، وجذل خضرة متناسلة... تساءلتُ كيف خلق هذا الشاعر عالماً صوّرهُ على قدرٍ كبيرٍ من الجماليةِ والإبداع تعبيراً عن تشبّثهِ بأرضهِ ووجوده؟...

لم أعد أبغي التفاصيل الكبيرة.. ولم أضع حسبان السؤال عن الصحاب مَن يكونون، وأينَ يجلسون... صار همّي فقط استحصال جواب السؤالين... عدتُ إلى الفناء. قادني الممر الحسير نحو الفضاء الداخلي للمسجد. تحركتُ متفرِّساً لعلّهُ انتهى من ترتيله.. لعلَّ الذكريات تهيأت.

كانت المفاجأة صاعقة !!..

كان المكان خالياً..

كانت حيرتي اتّسعت؛وغيوم دهشتي تكدّرَت.. استحالت الأعماق هديراً ماطراً لخيبة متفجّرة. رحتُ أستدير التفاتاً وبحثاً.. وعلى خطى حسرتي خرجت... المدى ما زال يعمّه الفراغ. ليس سوى البحث حول المكان موقناً بلقائهِ، فما مرَّ من الوقت لا يقاس إلاّ بلحظاتٍ ومن غير المعقول ابتعاده إلى درجةٍ يختفي كالوميض.

سعيتُ مسرعاً أمسح المساحات المحيطة... المكانُ خالٍ؛ ليس لي – إذاً – إلاّ فرداً أُوقفه. أستفهمه إنْ كان قد لمحه... وكان الحظُّ معي هذه المرّة لحظة أبصرت رجلاً مهندماً آتياً من بعيد؛ متجّهاً لبيتٍ متعالٍ قريب. بيت يعود لأزمنةٍ لا تخص الشاعر بل تخصّني، يعود لما قبل دخولي الواحة. اقتربت، وعلى حياء واستفسار خجول سألته... الرجلُ أظهر انشداهاً وبدا كأنه يراجع الذاكرة.. قليلاً وسمعته يرددّ اسم أبي الحسن. تمتمة خفيفة؛؛ ثم على ايقاع ابتسامة متنامية قال:

- ما تسأل عنه شاعر قديم؛ مرّت على وفاته قرون عديدة. هو القائل من يشتري منّي الـ.

- كفى.. كفى.. تدفّقت كلماتي هتافاً.

حدّقَ في وجهي؛ وبقليل من تدارك الأمر، وحفنةٍ من متطلّبات التعاطف فاه:

- تبدو غريباً هنا.

كنتُ على وشك أن أجيبه بإيجاب الرد عندما قال:

- لا بدَّ أنَّ الجملَ والكلبَ السارحان هناك يعودان لك. رأيتهما يتركان مكان وقوفهما، ويتحركان.

من جديد هتفت:

- كفى !!

بلا رغبة في مواصلة الحديث تحرّكتُ عدواً أبحث... لقد خسرتُ لقاءً حسبتُ له الكثير ولم يعد لي غير حفنة أبيات أردّدها مع ما حفظت من نتاج شعراء لم يعيشوا تجربة كتاباتهم حقّاً؛ بل تركوا لنا حريّة التخيّل والرحيل تصوّراً...

طالعني الكلب من بعيد فأطلقَ نباح الفقد؛ أو ربّما زغرودة الابتهاج لعودتي فيما لوى الجمل عنقه استجابةً لانطلاق نباح رفيق الدرب... لم يكونا بعيدين. كانا فقط يحملان سؤالاً عن مدى تحقّق المهمّة.

عندما همَّ يعدو أمامي، وشرع الجمل يعبّر عن شوقه للتحرّك إلى ميدانه الأثير / الصحراء.. عندما بدأتُ أنفض عن كاهل دواخلي أتربة البحث المضني استدرت لألقي آخر نظرةٍ على " ودّان " فأنبأتني التلال باختفائها، ولم أرَ غير بواقي القلعة أثراً يذكّرني بشاعري السراب، ومضمار البحث الخائب عنه.

واحة زلة

2001 / 2 / 20

---

(1) ودّان: واحة من واحات الجفرة الخمس؛ تقع وسط الخارطة الليبية. ينتمي أهلها لسلالة الرسول محمد (ص)، ويطلق عليهم لقب " الشرفاء ".

(2) رددّها إسماعيل بشير الغول وهو يعرض إزائي – على منضدة زجاجية – خارطة الجفرة ومفازاتها.. كان المعهد العالي الذي ضمّتنا إدارته يعيش نشاط افتتاح معرض الكتاب الجامعي الثالث. حوارات الطلاب، وهمس الطالبات، ووقع أقدام المشاركين أهلاً وضيوفاً يدخل مكاننا بلا استئذان فيما توقيتات الأنشطة وبرامجها الوفيرة يحتويها " بروكرام " أُعدَّ للاستقبال... فضولي حرّضني على معرفة ما يتعلّق بأبي الحسن كشاعر سمعتُ عنه الكثير فوجدتها فرصةً لاستفزاز ذاكرة الغول.. وأنا أحدّق متفحصاً خارطة ودّان، طفقت أردد: هل هو ودّاني حقّاً؟ فراح يصر، جادّاً واثقاً: نعم.. نعم.. وكيف لا يكون؟ !

زلة.. القلعة والنصب

الآماد الرملية / وجنات الأرض / جغرافية الذهول مطعّمة بارتفاعات ناهدة؛ تختم مخلوقات الغموض آثار أقدامها على الأديم السهل الذي سرعان ما يلاشيها بين أرديّة التماهي بفعل هبوب ريحي محمّل بغوايات الاتجاه... بين شجرة طلح تجاهد في تحدٍّ أزلي سعياً للبقاء، وبرج نفطي غرز إصبعه المعدني الخارق شاجّاً بطن الأرض الناعمة _ بغية امتصاص عذريّتها _ يبزغ ذلك البدوي الولوع بالحرية _ أراه _ يزيل لثاماً بقصد تحقيق استطلاع فضائي قصي، غير آبهٍ بالمجاهيل المتوارية خلف أخدود رملي لائذ، أو تحتَ حصاة سوداء تخفي جموع الأشباح المتوارية... كانَ خلَّفَ شعاب زلّة بمنخفضاتها وتلالها وبساتينها، وآبارها ذوات المياه المعدنية شديدة التركيز، وقلعتها البانية تضاريسها على تل وسيع. ذلك الحصن الطلياني: الذي يتمثّل إنموذجاً يُحتذى من نماذج _الحصون _ الدفاعية الاستعمارية "(1). وتلك البيوتات المحيطة، وطيئة السقوف المتهالكة.

قضى أياماً يتحرّى عن ناقته التي أطلق لها عنان البحث عن كلأ فأُخبر بانتشارها على مدى أثارِ دهشته وأزاد يقينه بأنَّ ارض " الجفرة " ربّما غدت يباباً تنعدم على ثراها الزروع، وتشح في بطونها المياه.(2).. ولكن أين يُمّمم وجهةَ تحرّيه، فالصحراء شسيعة تترامى بين "غدامس" كحدٍّ بلدي غربي، و"طبرق " شرقاً، ثم " سبها" هبوطاً جنوبياً، وهو البدوي الذي لا يملك غير حفنة تمر وقربة ماء انتهى لمنتصفها؟ حدث ذلك قبل أشهر الجفاف، يوم قبض على حفنة رمل وحدس بفراسة اللمس ثم الشم، ثم التطلّع أنَّ ما يحيطه لن يسعفه والمخلوقات على التواصل استعانةً بالارتياح؛ وأنَّ الريح الوئيدة المتكررة يومياً دافعةً مساحيق الرمال إعلاناً عن ولادة كثبان على حساب ذواء كثبان أخر لا توحي بالمقدم القريب للغيث.. عندها نظر شمالاً فألفى واحة " ودّان " توشّمها الوخزات الخضر.. وجنوباً تبيّنت له " سوكنة " تُجزّىء جسدها وتوزّعه عند مشارف أكتاف جبال بهيئة تلال.. وإذْ نظر الهوينا كانت " هون " على مرمى بصر.

كنتُ سمعتُ به، فقررتُ الكتابة عنه.

كتبتُ مفكراً أن أجد له مخرجاً ينقذه من حومة البحث المضني، وتجميع الجمال المبعثرة. بيد أنَّ ذلك يتطلّب مرافقته أو متابعته عن كثب.. أُسايره سيرة الرفقة الصامتة.. قد أتلقّى إيماءةً من يده أو كلمة مبتورة من شفتيه، وربّما أغض البصر عنه منجذباً بإغراءات اهتمامات أخرى: قراءة / كتابة _ شعر_ مقالة _ قصة... هموم وتفاصيل تُفضي بي إلى النأي والنسيان لخارطة تحركه؛ وبذلك تعثّرني مطبّات التيه.

كنت أنوي البحث عن ماهيّة الظواهر / أبعاد النأي / التطهّر بالصحراء.. هذه الموضوعات العميقة الأثر والتأثير تمنح رجل الصحراء همّاً ذاتياً يغدق عليه الصفاء، ويبعد عنه كل مظاهر المتعة الدنيوية جاعلاً من كفاحه اليومي جهاداً لحياة ثانية حيث لا يُرى في الماحول كسباً نهائياً بل شوطاً تواصليّاً مع أشواطه التالية وصولاً للعالم الأبدي / الميتا حياتي... ارتأيت البدوي هذا خلقَهُ بشخصيةٍ لها طابع التميّز.

أغدقُ عليه بهاءً تاريخياً يُشار له بالنظر / يُحكى عنه في الجلسات.. وما متابعاته لجماله إلاّ انطلاقاً نحو ذروة حدثية ترسم مسيرةً لها أبعادها المتعددّة.. وحين سقط بيدي كتاب " رحلة عبر الصحراء الليبية"(3) حفّزَ داخلي رغبة التتبّع – ولوعاً منذ طفولتي بالرحلات وتحركات المغامرين: ابنُ ماجد أخذ من هياج مخيلتي الكثير.. المتنبّي استفزَّ رغبتي في اللحاق بالمطامح واصطيادها بلا انكفاءات.. ابنُ بطّوطة رافقته بحاراً أشد الصواري / أرفع الأشرعة / أشارك في عسرة التجذيف. أثارني هذا الشاب المغامر يعايش العرب المسلمين في أعالي السواحل الأفريقية بارتحالاته؛ مقتنعاً برجاحة الإسلام على عموم الأديان فتخلّى عن مسيحيّته وهو يعاصر الربع الأول من القرن العشرين، مرتضيّاً بسماحة الدين الجديد عليه.. يشق البراري متسلّحاً بشجاعة القيم السامية ورجاحة الفكر المُبتغى / مشتعِلاً بروح تحدّي الأقدار التي أدّت في واحدة من المفاجآت إلى الموت قتلاً على يد قطاع طرق قبل وصوله ميناء العقبة الأردني؛ يجدونه صيداً سهلاً حالمين بطمع سرقة مقتنيات لم تصبّهم سوى بخيبةٍ عندما لم

يجدوا غير فرنكات معدودة وقرآن كريم، وكلمات فهموا من خلالها إنّه عازمٌ على أداء فريضة الحج ليعود إلى بلاده يحكي عظمة الإسلام وإنسانيته... هل ثمّةَ تقاربٌ في وجهَتي اهتمام الاثنين؟..هل للبدوي من شبهٍ وتطابق مع هذا المغامر الشاب ما يدفعني لجعله يحذو حذوه؟ هل.. وهل.. وهل؟... غزيرُ الأسئلة دارت وماجت لزمنٍ لا أدريه كانت الأيام كفيلةً بتبديدها وركنها بين نواصي النسيان، بعدما أزاحتني رغبةُ القراءة والكتابة نحو اهتمامات كتبتُ خلالها نص " المكائد "، وقرأت ما وجدت في كتيبات صغيرة احتواها رفٌّ ضئيل عملته تنظيماً لعدد من الكتب المضمومة بحوزتي حتى إذا توالت الأيام وفرغتُ ممّا لدي من خزين القراءة عدتُ لمتابعته. أجوب المفازات بحثاًً مثلما أُقلّب الأوراق سعياً لإيجاده. يتوارى بين مقالات لم تكتمل، ومسودات قصص لم تُبيَّض، ونثار نصوص شعرية جاءت بمثابة انثيالات خارج هيمنة العقل.. تجابهني رائحة وبرٍ مُدافٍ ببول " حوار " فأدرك وصولي.. أمدُّ يدي ماسحاً على ظهره.. ينتفض الرجل من بين أسطر عبثت ببعض كلماتها خطوطُ الحذف. أُحدّق فيه بعد الطمأنة: وجهٌ كساه اللفح صبغة السواد بينما رسمت التجاعيد فوق الجبهة مسارات غضون لها توازيات أو تقاطعات ظاهرة تحكي قسوة النهارات الفحيحة بالساعات السخينة.. وأرى إلى أنفه الصقري وشفتيه وقد يبّستهما الظهاري المستطيلة.. ثم أسمع كلمات تسكبها عيناه الحادّتان تُعيب عليَّ فضولي الثقيل _ كأنّهُ يعرفني _ ترسمان دفقة توجّسات تشي بها كفٌّ تمتد إلى خنجر معقوف أخفت طيّات " الجرد " جزءه السفلي ولم تبان منه غير قبضته الفضيّة المرصعة بشذرٍ تتنافر دكنته بين الأحمر

والأخضر واللازوردي.. لحظتها أُلقي تحية الألفة. ثم أُدلق في أذنيه مفردات الود والتحذير معاً.. أفوه: " أنا أوجدتك، إذاً أنا أُبقيك "..[نجالس الكبار ممّن خبروا الأعوام والسنن والأحداث.. نسمع شتّى الحكايات / نثار الأمثال / تتابع الأقاويل / حركات الأيدي / زمَّ الشفاه / انكماش الجباه.. نسمع حداءات العيون / تواليات التحديق / التركيز / الذهول / الصمت / الرحيل، تجمعها ذاكرتنا لنعيد صياغتها بعد تخمير زمني.. أولئك خزين معارف / كتب شفاهية / غرف مليئة بالتجارب، نخطف منها كنوزها الكلامية لنصيغها كسباً لربحٍ ثقافي نجنيه نصوصاً لنا... أتذكّر كيف أنَّ " آرنست همنغواي " كان قد طالع قصةً قصيرةً جداً لقاص مغمور، في جريدة أقليمية مغمورة عن بحّارٍ عجوز نال سخرية الصيادين الشباب لكبر سنّه، لكنّه يصطاد غب تغلغله _ وبإصرار مكين _ إلى أعماق البحر سمكةً هائلة فجّرت دهشتهم عند عودته / فخلق منها الكاتب رائعته (الشيخ والبحر)؛ نال عنها جائزة نوبل للآداب.].. ولكي لا أُثير حنقَهُ أتَّخذُ الوقوف هروباً فيما هو يستدير مواصلاً السير.. تلتهم الأرضَ الرخوةَ مشطا قدميه المنتعلان خفّين بائدين، وأبصره بعد حين يغوص وسط عتمات الأخاديد الغورية أو عطفات الارتفاعات الرملية، ما يلبث الأفقُ التالي أن يهمي عليه نبرات الصمت تاركاً شباك التحرّي والفضول تطويني ثم ترميني حَذاء أرخبيل زمني مقفر، أصرف بين صخوره وتعرّجاته أياماً من الملل والجزع، والانكماش... ضمور ثقافي يلفّني حيث لا صحيفة _ كما العادة البائدة _ ترد يوميّاً، ولا مجلة أُقلّب. الرسائل شحيحة / الأخبار تنعدم.. زلّة مدينة الجفاف !!.. زلّة البعد النائي !!...

أقضي أياماً أتحرّى _ أنا وليس البدوي _ أجوس متاهة اللاتوازن خروجاً إلى فسحة الضياع.. تارةً تحتدّم الدواخل سعياً لأداء فعل كتابي يُرضي ولو أشباراً من النزوع؛ وتارةً تلتهم خطاي سعة الجزع فأجدني بين براثن الضجر أتوجّع أو أأن. أُحفّز وأستعيد. أقارن الأيام الخوالي بالتوالي فأقيس الهوّة ضجيجةً. أقف على رصيف المراجعة. أجري حساب الكفّتين فأرى _ لحسن الطالع _ كفّة التواصل ترجح.. أبعث رسالة إلى محمد الرحومي (4)مرفقة بنصٍّ كوصفةٍ دوائية. بعد زمن تطالعني نتيجة العلاج الشافي بالنص منشوراً، يُمتّعني بزمن نقاهة يمتد أسبوعاً تتّأجّج عبره مَلَكَةُ الكتابة، ويحتشد توازياً شغف القراءة.. أترك البيت !.. أترك الخطى تقودني إلى بيت الشاعر محمد الربيعي. أطرق الباب للاستعانة بحفنة منشورات أحملها عائداً. نجلس نرتشف الشاي الأخضر. نتداول والروح يشتعل / نتساجل والقلب يغلي.. ينقِدني مجموعة شعرية لعلي الفزّاني، وثانية لمحي الدين محجوب، ورواية لكاتبة لم أسمع عنها قبلاً، وأعداداً من مجلة الناقد المتوقّفة _ حسب طلبي _ مع نصوص دوّنتها الأحرف الطباعية على صفحات مجلة أو صحيفة.

في البيت أجلس تائهاً بين قراءات متفاوتة تضمّني غرفةٌ بنافذة واحدة ضيّقة وجدران إسمنتية دكناء تنضح حرارةً سرقتها من جوف الشمس... وفي واحدة من لحظات الانصهار القرائي تعابثني نقرات خفيفة يجسّدها خشب النافذة يجابهها حدسي بالإهمال احتساباً أنها من فعل أصابع ريح وفيراً مارست هذا الأداء، ونحن في " زلّة " حاضنة الرياح المارّة ومستقبلة

هبوب الرمال التائهة.. وإذْ تتوالى النقرات وتحتد يفوه فمُ السؤال بـ": مَن؟ ".. لا شيء سوى همهمة آدمية. نهوضاً تكون الحركة، وانفتاحاً يكون فضاء النافذة.. الامتداد الماثل يقدِّم قامة البدوي تعطي قفاها للسؤال.. أنده به منتظراً الإجابة استدارةً، غير أنَّ الذي أردته يحدث لم يحدث.. أسعى عازماً الخروج إليه وإيقافه.. عندَ عتبة الباب الخارجي المدى المُتَجلّي يعطي إخباراً بالابتعاد. أحاول اللحاق به فيرشقني بسهام الفشل حيث التلال المتهافتة تدعوه وتغيّبه مخلّفةً خراب الخيبة يتّسع داخلي.

يقضي أياماً _ البدوي ولستُ أنا _ تاركني إلى فوضى. رؤى وأفكار تختلط بين عطفات الذهن.. زلّة تعصرني بكفِّ جفافها وحرِّها، وتبعثرِها.. نأياً أفكِّر بعمل رواية أحداثها تدور في قرية نائية، يزورها شاب بناءٍ لوصيّة أمّه المحتضرة، المُهملة من قِبل أبيه لانتزاع حقوقها منه. وحين يصلها يجدها مأوى أشباح. لا حياة فيها سوى الريح تعبث بأشجار عجفاء، باعثة صفيراً يشبه النواح فيغتاله الرعب ويجد نفسه بين الحياة والموت... ما أنْ بدأتُ كتابة أولى الصفحات حتى تمثّلَ " خوان رولفو " بعينين معاتبتين وملامح فيها الكثير من الامتعاض. من جيب سترتهِ استلَّ كتاباً طارت إليه عيناي تقرآن العنوان فإذا به (بيدرو بارامو) (5).. نهضتُ غارقاً في بحيرة عرقٍ، مُقدِّماً الاعتذار نظرات خجلى.. أفهمتُ السيد " رولفو" قصديّتي القائلة أنَّ ما فعلته جاء من باب الولع الشديد بروايته التي أعدها أنموذجاً للأعمال الروائية المعاصرة هيمنت على جهدي القرائي لزمن طويل حتّى غارت في دهاليز عقلي الباطن، وأنَّ هذا العقل خدعني بتقديمه

طُعمَ الكتابة في موضوع لا يمكن أن أكونَ فيه ناقلاً.. قلت له هذا محال لأنَّ " أجمل الأشياء وأنبل العواطف وأعظم المواقف لا تشكّل أثراً فنيّاً إذا نقلت نقلاً.. حين تبهرنا مقولة فأنَّ عظمتها لا تكون متولدة من فنيّتها بل من خصائصها التي أمكن نقلها، والنقل تاريخٌ ناقص " (6).. ولَدَت ابتسامةُ رضا نمَّ عنها وجه السيد " رولفو"، وبدا كأنه تقبّلَ رجاءاتي. قليلاً وسمعته يهمس بشكرٍ عذب لإعجابي بعمله، ثم يسألني: عندك الصحراء، لماذا لا تكتب عنها وأنتَ فيها؟ إنّها تضم العديد من " بيدرو بارامو"؟!.. كنت على وشك البوح عن موضوعي الذي أسهم في إنتاجه بمشغلي عندما توارى بلا اجابة ترسيني على رأيٍ لكني حسبت ذلك من باب التأييد لا الرفض. رأي القناعة لا الإنكار.. صار البدوي يمدّني برغبة مواصلة تتبّعه والكتابة حتى المنتهى. وصار البحث في الصحراء هاجسي الأكيد وموضوعي الأثير. منها تنمو نصوصي، وعلى مجسّاتها الأرضية تبزغ تواريخ الأحداث فأشرعُ في الكتابةِ عنها.

" قارة عافية " كانت أولى النصوص المُنتَجة.. بعثة صحفية تزور القارة لتكتب ريبورتاجاً تذكارياً حيّاً لمعركة " عافية "؛ يضجُّ بها دوي الرصاص وغبار الميدان يصاحبها سجال الكر والفر.. أفراس تندفع حاملة المجاهدين المهاجمين باتجاه تجحفل المحتلين الطليان، والشهر أكتوبر من العام 1928 يحفر وجوده على قرطاس التاريخ للحاضر الماثل والمستقبل المنتظر، وأنا في حثيث الوصف والسرد للالتحام / للاصطدام / للصرخات / للصد والرد.تتفجّر دهشتي لحظة أبصر البدوي يعتلي فرساً نافراً... ذلك

الوجه الأسمر الليلي والعينان النافذتان تقدحان ثورةً، يزرع المواقع رصاصاً.. تتهاوى حياله الأهداف مضرجة بالشهقات والهمود.. أعجب ! كيف قفز إلى جسد النص وكيف استحال نسيجاً لا يمكن استئصاله من مسار الحدث؟ وكيف خرج لي من بين الصفحات "239 /242 " في كتاب " نحو فزّان " تضببّت لديَّ المشاهد فرحت أستعين بذاكرة الكبار الذين شهدوا لي بوجوده في معظم معارك الجهاد. كانت عيناه تلاحقان تحركات العدو. يظهر ليلاً ويختفي.. يظهر، ويختفي.. شبحاً حسبوه. هابوا ظهوره مثلما هابوا اختفاءه.حصد منهم الكثير، لاحقوه بآلياتهم ومدافعهم، وحتى الطائرات. كان ذلك في أحراش (تاقرفت) التي تضم آباراً تقدَّم المحتلون لضمّها تأميناً للمياه، عصب البقاء الأول لوجودهم أحياء.. ورغم أنهم خاضوا في هذا الموقع أعنف معركة جابهوا خلالها المجاهدين مقدمين خسائر ثقيلة إلاّ أنَّ الأيام التالية أعسر عليهم وأشد.. كل يوم يتساقط لهم العديد من الأفراد.. كانت الأطلاقات فردية تلتقطهم التقاطاً، وقد اصطّدتُ مبعث إحداها.. رحتُ أزحف بقلمي مدوِّناً _ وصفاً _ العلو الرملي الساعد صوب أخدود غائر في كتف تل مطِّلاً على درب يؤدي إلى بئر " تاقرفت" العذب حيث راجلة عسكر الطليان يؤمونه للارتواء ونقل مياه الحاجة.. بعين التتبّع والحذر بانَ لي فم البندقية تُظهره كوّةٌ مستديرة؛ تسلّلتُ حذِراً.. من بقايا فسحة نظرتُ فأبصرتُ _ ويا لدهشتي المُضافة _ البدوي متّخذاً وضع البروك. أخمص البندقية يتكىء على خدّه الأيمن. حَذاءه على الرمل خراطيش العتاد تختلط مع حبّات تمر شبيهة بالتمر الذي رأيته يخفيه في خرجه أول رؤيتي له.. ومن عصا مغروزة في جدار

الأخدود ثمّةَ قربة ماء تتدلّى: " ما الذي أوجدكَ هنا؟! " " إشش !! ".. تمتمة تفسِّر دعوة إلى انتباه.. أغمضَ عيناً، ثم قطعَ نفَساً... راقبتُ سبابته تضغط على زناد البندقية المتأهبة فلم أسمع سوى دوي أفصح لي حالَ تركي الأخدود عن جثّةٍ بالكاكي منكفئة إلى الوراء..... وهناك داخل خيمة (أماتو) (6) كان الحقد يتشظّى، والكلمات المبتورة تشي بالوعيد.. تلك اللحظات طُرقَ باب بيتي فأنبأتني انفتاحه بورود حزمةٍ من صحيفة (الجماهيرية) أرسلت لي من " هون " قطعت مواصلتي للحدث. كان محمد الرحومي يكتب في زاوية رؤياه عن معالم ليبيا الأثرية؛ والشاعر عبد الحفيظ العدل يهتف بقلبٍ يخفق بالحب من " طرابلس" إلى " تونس " فيما محي الدين محجوب يكتب " التعلّق بالنزف " احتفاءً بثلاث شاعرات ليبيات.

تمتعني القراءة.. تؤوم الدواخل دفقةٌ ثلجيّة / صقيع مبتغى؛ لكنها لم تأخذ من وقتي الوفير لأنّ عزمي على متابعة البدوي وتدوين تحركاته صار يتناسل ويكبر وقتاً بعد آخر ما جعلني أحتضن بواحدة من لحظات العزم حزمة أوراق وحفنة تمر أجمعها في " خرج "؛ أصحبها بقربة ماء وأنطلق باتجاه " هون " حيث تركته في أول صفحة يمارس مهمة البحث... وهنالك قيل أنّه وجماله التي جمعها يتّجه نحو موطنه زلّة. أتّخذُ الدرب الذي سلكه، وأروح أغذُّ السير قاطعاً المفازات / مستعيناً ببعر الجمال المتناثر.. ذلك يمنحني الأمان من أنّي لا أسلك طريق التيه.(7)

لا أدري كم من الليالي حذفتها، ولا عدد الفراسخ التي رميتها ورائي، لكنّي وأنا أضع آخر حبّة تمر في فمي بقيت لدي، وأستعين بحثالة ماء أحتفظ بها قعر القربة واجهتُ مرتفعاً أرضيّاً حدستُ قمّته سترسيني على مدٍّ أرضي بهيئة سهل أخضر أو وادٍ وسيع.. وإذْ أدركتُ ذروته كانت " زلّ' " تعرض جغرافيتها إزاء عيني. قلعتها الماثلة تهيمن على هامة أعلى التل.. أرى إلى ذلك البعد النائي مستحضِراً حكاية مرّت بهيئة تفاصيل يقرّها واقع بعيد مضيء عمّن منحتهم التجارب يقين المواجهة بصبرٍ واستعانوا بالحكمة هدفاً للحلول الناجزة.. ذلك الشيخ الذي أشار لهم / لأبناء القلعة يوم تطلّع من فوق السور فشاهد المغيرين يرابطون ليس بعيداً بعدما فشلوا في اقتحام الهدف لاستباحته يراهنون على زمنٍ سيأتي وماء سينضب لدى المتحصّنين؛ تمَّ ذلك قبل أن يراود الطليان النزول على شواطىء طرابلس (هناك)؛ وزلّة (هنا) بحصنها المنتصب يقيهم عوادي الطامعين.. أشار لهم باستخراج الماء الغالي العزيز من البئر الوحيدة وسكبه من أعالي السور لتراه أعين المحاصِرين المتحيّنين للحظة الانقضاض التالية بعد حصار العطش الطويل _ الرهان المتقدّم من النوايا المضمّرة _ ورغم أنَّ الحكمة فُسِّرت من قِبل بعض سكان القلعة المُحاصَرة على أنها ربّما لوثة داهمت عقل الشيخ أو خرف استحوذَ على سلوكه ودَفَعَهُ إلى إهدار الماء الثمين، إلاّ أنها كانت المنقذَ لوجود القلعة ومستقبلها؛ وانكفاء ظاهر لواضعي خطط الإغارة، وخيبة سيحسبون لها حساب عدم التقرّب والمحاولة في توالي الزمن.

لاحَ لي رجلٌ كهل ينوء بحملِ كيسٍ أثقل كاهله فاستبقني خطوي؛ أسأله عن حال المدينة وقد تركها للتو (كأنَّ شيئاً داخلي هجسَ حدثاً غير اعتيادي). طالعني الرجل بإمعان، ثم استدار محاولاً تجنّبي.. أستوقفه فيفيض بما لديه بعدما يجد أن لا قدرة على صدّي... حدّثني عن رجلٍ _ أعطى ملامحه _ ألقى الطليان القبض عليه، هو الآن معتقل بسجن القلعة انتظاراً لإعدامه غداً.

لم يفقه الكهل سبب ارتعاشي وتلعثمي وارتباكي سوى أنّه طفق يشيّع ابتعادي عنه بدعاء يمنحني الرأفةَ والعطف.

ارتفاعات زلة وانخفاضات أرضها يتلبسها صمت مشوب بارتياب... السماء كما لو كانت ترتّب كلمات مبهمة.. البساتين كأنها تضمر خشيةً لا تريد لها التحقّق. أقترب من تهالكات البيوت. سكون _ همود _ موجودات طعينة _ ترقُّب _ ذهول _ احتدام.. اقتحاماً سيكون وصولي إليه. هكذا توالد القرار فيَّ.

أُخلِّف ورائي قبري الوليين والبيوت الضئيلة المتراصفة وأتّجه صعوداً، مخالِفاً السير على الدرب الحجري المعتاد الذي يسلكه الصاعدون إلى فُساحة القلعة.. تصدمني أصوات تطالبني بالتوقّف. تعقبها أخرى تنم عن سحب أسام البنادق _ تحذير نهائي _ أرفع رأسي فتواجهني _ من خلال كوّة مستطيلة _ وجوه سود حبشية بعيون بيض أكلها الرعب. القلب يتدرّع بالتحدّي. الإصرار يطالب المواجهة. ذلك الجبروت الاستعماري / تلك

الحدّة المتغطرسة تنتجان رمياً واحداً، واطلاقات تجعلني الهدف الأوحد... إحساس بحرارة الاختراق / بلذع الأعوام. أرى إلى جسدي المثقَّب وأعجب: كيف ى أسقط؟!.. الوجوه الكالحة تنظر بعين الذهول فيما وجوهٌ حمر ملفوحة لقامات متضخّمة تقرأني من على نواصي القلعة؛ ترى في صعودي المتواصل طمساً لكبريائهم فتأتي الأوامر أكثر حدّة وتنويعات الرد أشد عنفاً.. أرتقي، وأرتقي. حتّى إذا اكتملَ تسلّق الحصن ووقفتُ منتصباً على حواف تخومه الحجرية استحال جسدي منخلاً، لكنَّ قلبي مُصان، وقلمي في ذروة هياجه الفعلي.

كُبِّلتُ من قبل زمرة جنود حازمين أوقفوني بمواجهة ضابط إيطالي غاضب. يتفرّس بي تارةً؛ وتارةً يبعث عينيه خارج حافّات السور كأنّه يستكشف وجوهاً ثانية ستعتلي كيان الحصن لتتّحدّاه. عادَ يغرز نظراته النارية في وجهي. يتفرّس، ويتفرّس كما لو أن سؤالاً انبثق في دهاليز رأسه، يقول: أين رأيته؟؟.. استدار إلى ضابطٍ أدنى رتبةً يقف بجانبه.. طفق يكلمه بإيطالية متعجرفة. ثم عاد وكفّه بسبابة مرتعشة تشير: هذا أخوه.. أخوه. إنّهُ أخوه... حين ردَّ الضابط الرفيق سلباً ازدادَ صوتُهُ حدّةً وخشونة مصرّاً على أنّي أخوه.. أخوه !! آلَ إلى كلام مبتور فجّرهُ فمه.. سُحِبتُ بارتباك. فهمتُ أنّه أمر اعتقالي بتهمة الاقتحام وتحقيق القتل.

في الليل.. من حُضن العتمة ونتانة المكان / السجن جرّني اثنان من الجنود العتاة (أحسست بكفّيَّ سيُبتران من المعصمين جرّاء قوة الحبل المقيد لهما بعنف وجمود الدم المخزون فيهما.) إلى فناء لم أشهده لحظة قادوني إلى

قبو السجن قبل ساعات.. فناء مربّع وسيع، تنفتح عليه أبواب عديدة تتشابه بعرضها وارتفاعاتها؛ تتبدّى فوانيس تدلق ضوءً يجعل هذا البعد الهندسي الحجري يتماوج بترجرجات ايماضيّة تُقرّبُ معتقلات القرون الوسطى.. ثمّة حركةٌ لأرجل حرّاس تضرب الأرض برتابة آليّة.. بانتهار أوقفني أحد الجنديين بينما دخل الثاني عبر باب بعد طرقها... هنيهات ووجدتني أقف أمام ثلاثة عسكريين تحمل أكتافهم رتباً متفاوتة فخمتُ من خلال أسئلة وجِّهت إليَّ أنّهم محققّون رأيتهم يحدّقون بي ونظراتهم تمتزج بضجيج حقدٍ معجون بدهَشٍ خزين.. كالوا لي تهماً متراكمة يدخل ضمنها نقل الأسرار وبث الأقاويل، وإعداد خطط للاغتيال.. سألوني الاعتراف فصمتُّ عناداً. غير أنَّ الفم تمرّد متجاوزاً العناد.. انبعث بسيل قهقهات تتبعها قهقهات، دافقة / صخيبة. كلمات تؤكِّد نقائي لكنها ر تعفيني من حمل أسرارهم وإفشائها / مقاومتي لهم حدَّ إفنائهم قتلاً أو رعباً، وحتى ملاحقةً بلا هوادة. ظلّوا يسألونني بكظيم غيض فاقهقهه.. أقهقه.. قليلاً ودخل العسكري الثاني، تعاوناً مع الأول أخرجاني وكلمة " الإعدام رمياً !" مقذوفةً ورائي. لم آبه لها بعدما تلتها عبارة " يتم اعدام الاثنين معاً "؛ لحظتها أدركت إنّ الأول (أنا) أمّا الثاني لابدَّ سيكون (هو).. هو الرجل البدوي.

كتيماً كان فضاء السجن، تعجُّ به زنوخة مقصودة. عندما أدخلوني عليه لم أتحسسّ جّاء العتمة سوى كلمات هامسة بانت كأنها نداء روحي مليء باليقين.. نطقتُ بمفردات الاستفهام استهلالاً للحديث. مددتُ يدي

فتلمّستُ كياناً يبتهل بلا خشية ولا ارتجاف / بلا قلق ولا ارتهاب.. كينونة آدمية تحتشد بالإيمان.. دماء دافقة وعقل بكامل الصحو... ألقيت عليه الكلمات. رمته ينطق. قلت: جاءوا بي مثلما جاءوا بك فكلّمني. امتدت كفّه تخترق كلح الظلمة. شعرتُ بأنامله تمسك قلمي وتدّون.. وقتاً طويلاً صرفته أُبدّد جزئيات الديجور المهيمن كي ألمُّ بضوءٍ يعرض لي وجهه حتى أخذ الإعياء مني قدرة جسدي على المثول واستمرار الصحو فغفوت.. بين وقتٍ ووقت كانت أصابع دفيئة / حانية تمس كياني النائم، تتفقدّني رابتةً على أعضائي المتعبة. ربتات نقلتني إلى عالم حلمي رأيتُ فيه البدوي يُساق مكبّل اليدين فيما أصوات سلاسل تُقيّد قدميه تصطك مُصدرةً صريراً مدويّاً يغمر الأجواء.

زمرة جنود مدججّون أصعدوه إلى عربة جيب عسكرية، سريعاً تحركت تاركةً القلعة صوب مرتَفَعٍ قريب يناهض الموقع الحصين.. هناك أوقفوه. أنزلوه. ثمّة السماء تكتظ بالصمت؛ تمزّقُ بغتةً أصوات تبعثها طيور خرافية غريبة... ومن جموع نخيل سامق كأنه يلاحق حيثيات المشهد تنطلق جملة أصوات شبيهةً بتراتيل دينية أو هدير فرحٍ، أو تداعيات فواخت تبعث موسيقى الفقد صوب المكان الذي شهدَ توقف عربة الجيب. تلا نزوله دربكة سريعة جاءت إثرَ أمرٍ فجّرهُ فمُ عسكري يحمل رتبةً ذراعه الأيمن فأسرع ثلاثة جنود حالكوا الوجوه، حاملين بنادقَ. اتخذوا وقفةً تبعدهم أمتاراً عن الرجل البدوي.. ارتفاع البنادق وهيأة الاستعداد لفعل الرمي قلّصَت البعد فتشكّلت لوحةُ سريالية تكشف

وضاعة وتحجّر مشاعره؛ تفضحها الصرخة المنبعثة من فم العسكري الذي انتصب نقطةً تنَّصف المسافة بين البعدين المتنافرين، المستحيلة أمراً يستعد له الثلاثة / تستعد له الآلات المحمّلة بالموت لتوزعه على القوام الذي أبصرته يشرأب علواً.. مفردات خشوع تكبّر الخالق يرسلها فمُ البدوي. وحين تهاوى بعد دويٍ متواصل اصطبغت الوجوه المعتدية بصبغة الرماد وشرعت الأيادي تقطر دماً أُنسيّاً فائراً حاولوا كثيراً وجهدوا من أجل إزالته من بين مساماتها فلم يقدروا، بينما طافت فوق الكيان الذي عانق التراب أطيافٌ من بهاء وألق شبَّ مرتفعاً صعوداً باتجاهات فضاءات قصيّة.

أصحو على سكون جاثم فأجد القلعة يغمرها طوفان همود.. لا بوق ينفر، ولا طبل يدق.. لا نبرات لكلمات أجنبية. القلعة فارغة. لا أثر لأحدٍ... ينبثق السؤال:" أين صاحبي؟!.. والجموع؟! "...

خارجاً لفناء القلعة المحيط تدور بي قدماي. أُلقي نظرة البحث. لاشيء غير الشمس تحتفي بسطوعها،والتلال ظواهر بارزة تُعلِّم زلة وتميّزها مدينةً لها نخيل بتيجان توشم امتداد الأرض.. وهناك على بقعةٍ تتيه بين بهاء النور والأفياء المتقاربة ألتقطُ البدوي بقامته المديدة يلاحق حركة جمال مبعثرة بغية تجميعها.. أحزمُ أوراقي تحت إبطي وأعزم هابطاً، مخلِّفاً المكان وتفاصيله المحنّطة، مشدِّداً على لقائه وإلقاء آخر الأسئلة التي يكمل جوابها خاتمة مشروعي الكتابي الذي صارت النهاية له بداية الكتابة عنه.. أعدو تسبقني قدماي تحت شمس تغدق دفءً يفعمني بحرارة تخلق

في أعماقي. أرى الجمال تتحرك ببطء. بآليّة مذهلة؛ ما تلبث أن تتوقّف فتذوب تحت اشتعالات بريق يُظهرها شخوصاً تنصهر مستحيلةً هياكل تأخذ شكل الأكوام الرملية أو الأجمّات الخضر تطبع وجودها على الأديم الرخو فيما الرجل البدوي يقف منتصباً يتأمل جغرافية زلّة عرضاً وطولاً كما لو أنّه يبغي اغتراف ما يمكنه من مشهد الأرض وتجسيداتها. أنده به.. أنده.. يلتفت لذبذبة النداء ثم يستدير.

تنده به الخطى السائرة أمامه.. أنده به أنا.. تنده به خطاه.. أنده.. تنده... يكمل السير باتجاه نُصبٍ متسامق ينبثق من صدر الأرض ويفرض وجوده الماثل... وبلقطة تشبه حدود الخيال ترسم باباً يوارَب في قوام النصب(8) ويترك لي مفردات من حروف هي مزيج من ألق ودم محفور على الرخام الصلب تحكي شهادةً بيضاء لاستشهادٍ يؤرّخ وفاءً سرمدياً يربط الإنسان بأرضه عبر أقانيم الشهادة وسمو التضحية.

واحة زلّة

1999/7/20

---

(1) " نحو فزّان " ردولفو غراسياني _ ترجمة طه فوزي _ اصدار مكتبة صايغ / القاهرة _ ص394.

(2) الطبيعة في نظر رجل الصحراء تفاصيل يومية راكدة يقيس نشوتها من ارتياح مخلوقاته المبنية على الشبع والارتواء.. حفاوته التي تغدق عليه بهجة رغوية متصاعدة تتمثل في المدِّ

الأرضي المكسو بخضرة الزروع، ودفق السيول، والسعة السماوية المغمورة بدكنة الغيوم وثقلها.

(3) " رحلة في الصحراء الليبية " تأليف كنود هولمبو _ ترجمة الفرجاني / طرابلس 1960.

(4) محمد الرحومي، محرر الصفحة الثقافية في صحيفة" الجماهيرية "_ ليبيا.

(5) خوان رولفو، كاتب مكسيكي ذاع صيته اثر نشر روايته الوحيدة " بيدرو بارامو ". له مجموعة قصصية وحيدة أيضاً " السهل الملتهب ". يُحسَب من أبرز كتاب أمريكا اللاتينية ويقف بجانب " بورخس" و" ماركيز" و" خوليو كورتوزار" شهرةً رغم محدوديّة انتاجه.

(6) حركية الإبداع _ تأليف د. خالدة سعيد _ دار العودة _بيروت ص16.

(7) لقد كان الأدلاّء في الصحراء يقيسون الزمن من تفتيت بعر الجمال.. يحسبون الأيام التي مرّت فيها قافلة ما من استقراء نداوة وجفاف البعر.. فراسة تستدعيها الظاهرة. والظاهرة تعطي تعاليمها للاقتداء.

(8) يعود النصب للشهيد علي الزوّام الذي أعدمهُ الايطاليون رمياً بالرصاص في ذات الموقع في العام 1929.

واحة سوكنة (1)

عافية: القارّة المُعلَّمة بالإرث

هاجس السؤال:

هل ثمّةَ تواشجٌ بين "سوكنة" و"الرميثة"(2) أو " المدحتية "(3)، أو " سوق الشيوخ " (4) مثلاً.. وهل هناك ما يشير لتوارد خواطر ورغبة متشابهة، أم وراء ذلك مناسبة متُطلبَّة / حدث مكتوب فرضَ وجوده فجعلَ من المرأة السوكنية تلف قوامها بعباءة سوداء كعباءة المرأة العراقية؟!..

في العراق كان للحزن المتوارث عبر مآسٍ كثار مبررٌ ناجز للعراقية لأنْ تُعلن احتجاجاً ايمائيّاً بوجه الزمن والتاريخ والقدر؛ وحتى البشر كإعلان فجيعة مستمرة / دائمة. كمتوالية يبدو أنها لا تنتهي طالما أنّ هناك وطناً سميناً يافعاً بالخير كالعراق.. ومن هنا تكاد تكون كل نساء العراق يرتدين السواد.(عندما دخلتُ سوكنة لأول مرّة فوجئتُ بامرأة تقطع الشارع عابرةً. عباءتها السوداء طرقت باب دهشتي فهتف قلبي: "يا إلهي هذه امرأة عراقية.. وعندما انعطفتُ في طريقٍ فرعي ظهرت امرأتان بذات اللون العبائي. تكبّلَ اللسان من المفاجأة، لكن القلب قلبي هتفَ هذه المرّة: ياه العائلات العراقيات كثر هنا... وإذْ تكرَّر المشهد واستمرَّ انبثاق السؤال

أفهمني صديقٌ عراقي أمشي صحبته: هذا ما واجهني قبلك؛ وهذا ما اعتراني يوم نزلتُ هذه المدينة.)..

فعلُ الأسطرة:

للواقع السوكني حكاياهُ وأساطيره. وللجدّات مشاويرٌ من القص الهادف تتلقّفها مسامع الصغار لتحيلها سيناريوهات صورية تولّدها المخيلة المحتدمة، المتحفّزة للاشتغال لأنَّ " الخيال يمنح إضافات لقيم الواقع "(5) كما يقول باشلار؛ ويهبُ مبررِّاتٍ لصناعة الذكريات كما أقول أنا. ومن هنا وذاك يكون للحكاية أثرها الحافر بأزميل البقاء فتنتج دلالات ظاهرة من مدلولات معروضة.. (كان، يا ما كان يا أولاد. كان هنا عند الناصية التي هي أمامكم على مرمى نظر بئرٌ ثرّةٌ؛ منبعُ ماءٍ عذبٍ ووفير، ومثار حسدٍ ورغبة في الامتلاك. عائديتها لرجل تقي / نقي / صادق الكلمة والعهد / كريم اللقاء والود.تآمر عليه القدر والنظر فأُخبر في واحدة من لحظات الكدر بسرقة جماله من قبل زمرة باغية تمتهن اللصوصية والأكل المُداف بالدمِ والغدر_ وما أكثرهم في تلك الأيام التي لا يغمر الصحراء سوى الرمال ولا تعبث في البريّة سوى الذئاب والضباع والوحوش الكاسرة _ وأنّهم الآن متجهون صوب الجنوب. ولمّا كان لا يملك واسطةً سريعةً تمكّنه من الوصول إليهم قبل أنْ ينأوا عنه ويغدو من العسير اللحاق بهم سوى الحصول على حصان يملكه فردٌ من عرب الواحة. ذلك الذي اشترط عليه في لحظة من أوقات حيان الفرص للاستحواذ وتحقيق الربح غير المتكافيء أنْ يقايضه البئرَ بالحصان إنْ حدث للأخير مكروه.كان ذلك في وقتٍ تعادلُ

فيه قيمةُ البئر عشرةَ أضعاف ثمن الحصان؛ لكنَّ الموقف آلَ إلى هذا الحال من اتخاذ القرار الذي قبله الرجل المسروق؛ فانطلقَ صوب السرّاق حتى أدركهم فأنزلَ بهم قتلاً أو هرباً مستعيداً الجمال ومستعدّاً للحدث الأكبر؛ ذلك الذي حدسهُ الرجل الطامع وتمنّاه إذْ نفق الحصان من الجهد والإرهاق، والصهد. ولم يقُلْ مُسعيدُ المال يا أولاد شيئاً سوى أنْ سلّمَ البئرَ وفاءً للعهد والتزاماً بالكلمة)..

وقعُ الحدث:

كان يمكن الوقوف عند " عافية " _ الواقعة _ الأرض كي ما أستعيد وأستجلي، وأتطلّع لقسمات " غراتسياني " تتغير آنٍ إثرَ آن عند مقتطع من ملحمةٍ غدت إحدى مهمَّات حملته للسيطرة والأسطرة، متحركاً شرقاً ثم جنوباً باتّجاه " فزّان " لإحكام هيمنته على الأرض الليبية سعياً لحيازة وسام الرضا والإكبار من قائده الفاشي " موسوليني ".. وغراتسياني هذا توقّفَ طويلاً في مذكراته ليكتب تصويراً كيف أعاق المجاهدون الذين جمعتهم نُسمُ الإيمان، ووحّدت إصرارهم على مقارعة عدوٍّ غازٍ يفوقهم دهاءً وعدّةً. لقد أعاقوا له حملةً ظنّها كشربةِ ماءٍ أو كخطٍّ على رمل ولم يحسب أنّ قواته ستدخل أتون معركةٍ كشّرت أنيابها لالتهام الأجساد من الجانبين.(6)

سألتُ سائق الأجرة الأربعيني الذي أقلّني من " سوكنة " إلى " هون " عن (عافية)؛ قال:

_ " بعد قليل سأُريك الموقع؛ لكنَّ الطريق المسفلت هذا لا يقود إليها لأنها ستكون بعيدة.".

لم أرُد، إنّما تركتُ الصمت يقوده لقطع مسافة لم تتعدَّ الخمسة كيلومترات. عندها قال:

_ أترى ذلك الجبل البعيد؟... وكان يشير إلى يمين الطريق.

_ نعم.

_ تلك هي القارّة.(7)

تفجَّرَ الفضول داخلي.. آثرتُ ألاّ أترك الفرصة تضيع، فإنْ فلتت هذه المرّة فقد لا أحظى بمثلها قريباً، وربّما إلى الأبد.... من هنا اقترحت:

_ ما رأيك لو ذهبنا إليها؟

أظهرت سحنتهُ رفضاً دفيناً. وآنْ قلت " سأدفع لك أجرةَ الذهاب والمجيء توارت الممانعة. استبدلها بالرضا والارتياح.. قللَّ من سرعته عندما دنا من دربٍ ترابي ينحرف يميناً.. دخله:

_ من هنا الطريق الأمثل للوصول.

أربعة كيلومترات لا أكثر قطعها قبل أن يوقف سيّارته ويدعوني للنزول، لأجد نفسي في منحدر بشكلِ وادٍ أجرد لا زرعَ فيه ولا ماء. رملٌ متكلِّس تطلُ عليه ارتفاعات متفاوتة:

_ هنا دارت أعتى معركة شهدها الطليان في منطقة " الجفرة ". المجاهدون خسروا الكثير من رجالاتهم لكنهم أيضاً نالوا من أعدائهم وزرعوا يقينا أنَّ أرضهم ثمينة لا تؤخذ منهم بيسر.. أُنظرْ لتلك الأحجار المتراصّة؛ أتراها هناك. تلك هي قبورهم ماثلة تحكي سّفر الملحمة.

حقّاً؛: ثمّةَ سفحٌأعلى من التلال الوطيئة المتجاورة يشي بأكوامٍ حجرية مرصوفة.(الموقف أثار فيَّ رغبةَ كتابةٍ.. دوَّن القلم مفرداتٍ وعبارات سريعة ومبتورة. الرغبة حفّزت لدي اندفاعاً لكتابة نصٍّ قصصي اكتمل تدوينه لاحقاً ونشر في الصحافة إذْ المشهد لا يمكن إغفاله، فهو يدفع إلى إنجاز تدويني يؤرِّخ للحدث وجوده ويرسم فعلَ أُناسٍ أحبوا أرضهم وانبروا يفدونها بأثمن ما يملكون).

_ هناك دفنَ المجاهدون الأحياء رفاقَهم الشهداء. لم يسعفهم الوقت لنقل جثامينهم لأهليهم ليشهدوا الدفن.. كانوا مُتعبين ومبعثرين. لقد كانت معركة خاسرة بحكم المقاسات العسكرية، لكنَّ الانتصار الذي بمثابة ربح جاء بصمودِهم الإيماني ومقارعتهم المحتل إثباتاً أنَّ كل قصبة ومدينة من خارطة الوطن أعلنت رفضها للاحتلال؛ وما معركة عافية هذه إلاّ طريق تواصلي مع نضالٍ كان المجاهدون في الشمال يؤججّونه يقودهم الشيخ عمر المختار.

تعبير سردي

حين هبطنا مخلّفين العربات حذاء الطريق المعبّد حيث الكاميرات مُعلّقة في الأعناق، والحقائب الجلدية المليئة بالأوراق الهاطلة من الأكتاف ساورنا شعور دافق لإشباع الفضول.. تطلّعنا فسمعنا من يقول: تلك هي القارة؛ ذلك هو الجبل.

حثثنا الخطى تحيطنا هيبة المكان وشيع الصمت.. وما أنْ دنونا حتى التهمت ستائر هذا الصمت أصوات خفيضة شرعت تنهض تصاعديّاً من قلب الأرض.. أصوات خليطة تقود إلى استفهامات كبّلت أبصارنا الدهيشة تاركةً شفاهنا تتمتم حتى طغى عليها تعالي أصوات صرنا نسمعها. [أفراس تهر / أرجل تضرب جسد الأرض / دربكة مربكة / اطلاقات هوجاء / قذائف صخيبة لمدفعية منفلتة مجنونة / صراخ تعقبه آهات / أنين تسبقه همهمات / كرٌّ وفر؛ وحجارة الجبل _ شاهد الوقيعة _ يتلقّى صدرها كتل الحديد الحمر المتوهّجة فتبعثرها حطاماً... الأفراس تتراجع هنيهات؛ ما تلبث أنْ تجتمع فتعود مندفعةً بحماسٍ يؤجّجهُ إصرار مكين.. عيون الوجوه الغازية تتخفّى بأردية الرعب؛ تلوذ بالآليات القميئة انتظاراً

للقدر القادم، نادبةً عثرةَ حظٍّ رمتها هنا.. ثمّةَ عينان زرقاوان حسيرتان كانتا تتابعان مشهد الموت الذي شرع يدنو منهما.]..

قارة " عافية " ببئرها الزمزمي وجبلها المُخضّب بحنّاء الصخر وانكسارات صعوده أو هبوطه، وحتى انعطافاته تحفر حدثاً شاءته وشماً يطرز جبهتها لتغدو جغرافيةً يحيكها التاريخ بمداده السرمدي فنرى [جوقةً بيضاء من حشد المجاهدين تتحرك باندفاع هجومي محمولاً على لهاث الأفراس المحمحمة وعتمة الهزيع الدكين صوبَ التماثلات الآلية وقد بانت أهدافاً بازغة استهدفت تدميرها واستحالتها هشيماً... تلك العينان الزرقاوان لذلك الوجه المحتقن الذي فعلت به حرارة الصحراء لفحاً، تاركةً النجيمات المتوزّعة على قماش الكتفين ترجمتا عنفَ القادمين فتوجّست قدراً كثيراً ما مرّت تفاصيله مُضبّبةً ما وراء الأجفان ساعات الانطباق تحت هيمنة كابوس متواصل وثقيل.. دارت أمامهما سريعاً صور الذكرى: الأيادي الملوّحة: يدُ القائد الحالم بامتلاك الشواطىء والأعماق / يدُ الأمِّ التي من فرطِ بكائها عند رصيف الوداع هبطت ولم تعد قادرة على مواصلة التلويح / يدُ الزوجة المكتئبة، المتهجّسة من أنْ يكونَ فراقاً أبديّاً / يدُ الطفل الابن الذي لم يفقه ما يحدُث / ثم اليد التي أطلقت سهمَ البريق الحادث بإطلاقةٍ نافذة مزّقت صلادة الخوذة الواقية وانفلقت في صندوق الرأس.. والمهاجم الثائر من جرّاء احتدامه لم يلحظ العينين المرتعبتين تنطفئان، بل سمع شهقةً خاطفة سرعان ما تلاشت وسط هدير الرشقات وصرخات الموت المُحتفي بازدهائهِ.]. شاهدنا فورات تتعالى خمنّاها زغاريدَ يُطلقها فمُ

الأرض... عظُمَ الحدث في نفوسنا مثلما قرأنا عنه وجئنا إليه.. راحت ذاكرتنا الدافقة بالتوفِّز تسترجع أسطر الصفحات (390_394) من " نحو فزّان " حيث غراسياني يتابع بقلب الخشية فشلَ حملةٍ أراد لها أن تكونَ مجداً شخصيّاً فطفق يستنجد بأسلحة النهار وأنواره كي تنقذه ورجاله من هذا الهول الماثل.

امتدّت أكفّنا نحو الكاميرات ترفعها؛ وبعض استلّت الأقلام لترسم بالكلمات وتكتب بالصور مواقع تلك المأثرة، رديفة المآثر العديدة الطويلة، الحادية بالطامعين إلى الرحيل، فيما ثرى الأرض ظلَّ يسرد حكاية ذلك الجبل الناهض وتلك القارة الخصيبة ببئرها الضارب عمقاً، يختزن صدى القَسَم المنبثق من أفواه الرجال المُتَّحِدين / المُتَحَدين.

1999/1/24

---

(1) سوكنة: واحدة من واحات الجفرة، وتبعد عن هون بعشرين كم.

(2) ،(3)،(4) الرميثة/ المدحتية / سوق الشيوخ: مدن عراقية.

(5) غاستون باشلار / جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ص35

(6) انظر " نحو فزّان " تأليف غراسياني، ترجمة طه فوزي، إصدار مكتبة صايغ – القاهرة.

(7) يُطلق الليبيون على التل المرتفع اسمَ " قارة".

الفقهاء.. ملتقيات ومفارق

في الصحراء الليبية المترامية الشسيعة تنبثق البؤر الخضر زارعة وجودها منابت واستتبابات للقاطعين الفيافي ومجتازي المفازات سعيّاً لاستمرارية العيش أو رحيلاً لتغيير حال.. تغدو هذه البؤر مراكز تجمّعات ومحطّات يضعها _ في المخطط الاستشعاري _ المتحرك من أقصى الشمال / من الساحل البحري حيث (كمبوت)(1) و(راس لانوف)2 و(زليتن)3 و(ابو كماش)4 باتجاه الجنوب عمقاً إذْ (العوينات)5 و(أوزي)6 و(بئر الوعر)7 و(عين الزان)8، دخولاً الى صحراء تشاد والنيجر.. وقد يقتضي الأمر التحرك من الغرب صوب الشرق _ وبالعكس _ فتصير الجزائر جبهةً يخلّفها القاصد وراءهُ، ماراً بـ(حمادة تنغرت)9 و (براك)10 و (زلّة)11 و(سماح)12 و(السرير)13، ثم (الجغبوب)14 تماسّاً مع الحدود المصرية.

ولابدَّ للذين يتّخذون الممرات والدروب الأيسر قطعاً لإدراك المرام المرور خلل هذه المنابت؛ وبالتأكيد سيكون أحدها (الفقهاء)15. الواحة التي تغازلها قمم جبال الهروج الأسود – وهي لا تنأى عنها بغير كيلومترات معدودة – المرتع والملاذ الأبدي للغزلان والودّان؛ والفضاء المُرحِّب بالطيور

التائقة للأمان والهناء... والفقهاء شأنها شأن الواحات المعطاءة تتجلّى رهيفةً سمحة تناهض تقادمات الحقب وتتجاوز تواليات القرون: تستقبل وتودّع / تسعد للّقاء وتتأسى للوداع.. تهب فتجزل العطاء / تحتضن فتمنح الأمان.

هكذا هي المحطّات..

وتلك هي الممرّات..

ملتقيات.. ومفارِق...

***

في " الفقهاء " اليوم: الحاضر يصطدم بالماضي.. ثم الحاضر يترك الماضي وراءه؛ تماماً كما المعادلة الجدليّة للوجود المبنيّة على أساس مبدأ (نفي النفي).

البيوت الحديثة تشكِّل تكويناتها بعيداً عن القديمة.. البيوت الحديثة تتّخذ موقعاً مرتفعاً بينما تجافي القديمة الجاثية عند انبساط سفحي لتلٍّ يحكي سِفرَ الأجداد المسالمين؛ ولكن الوجلين من المفاجآت التي بهيئة غزوات لا يأمنوا الانبساطات كثوابت للعيش بل وضّفوها لمهام الرعي تسوح على مرابعها إبلهم وترعى شياههم تحرسها الكلاب.. لم يولوا خشيةً لذئبٍ غادر أو ضبعٍ مختلس؛ لا ولا لإسدٍ جائع أو نمر يبحث عن ضالةٍ فهذه مخلوقات طمعها في بطونها فحاجتها لا تمثّل مُعضلةً إنمّا الخوف

يأتي من جهة البشر العدائي، ذلك الذي لا تمتلىء دهاليز طمعهِ ولا تتوقف شهية استحواذه.. يستمر شرِهاً / نِهماً تسوقه النزعة الساديّة إلى أقصى آفاق القسوة.

إذاً لم يتبقَّ من " الفقهاء" القديمة سوى أطلال هياكل لبضعة بيوت من الطوب والحجر المتكتّل بلا اتِّساق ولا هندسة ذوقية/ دفنت أسرارها وحجاياها، وحنّطت الأنفاس. فقط هياكل اختارت وجودها على موقع يتطلّبه الحال الراصد لجهات تكوِّن خلاءً صحراوياً وتحسّباً تهجّسياً من أعداء غازين / غادرين. فالغازي وفق العرف الجاهلي فردٌ يتّسم بالشجاعة والدهاء، إذْ لا يوجد ما يشينهُ سواء جاء من جهة أدنى (فزّان) أو قدِمَ من أقصى قارة (أم الرجي) طالما الحصيلة ستؤول إلى عبيد من النساء والرجال، وغنيمة وفيرة من الجمال والأغنام.. بيدّ أنَّ الوصول إلى البيوتات / الأطلال وتملّي الجدران المهدّمة والأحجار المتراكمة والحفر الغائرة ينثر على راحات أكفِّنا بواعث معلومات توقظ فينا فضول التعّرف وتضع حيالنا الكثير من حجر الصوان.[هنا نتلمّسه كثيراً فيأتينا القول أنّ ضرب حجر بحجر يعني خلق حياة من نار ولهب، ثم وسيلة مريحة للإنارة ساعة تدلهمُّ الليالي بعتمة كالحة ويغدو الفضاء عالماً رافلاً بالجنّ والأشباح. وحين نتناول نحنُ الفعل يُضاء لنا درب المشاهدة والاكتشاف.] فنروح نشاهد بعين التحديق والتفرّس غرفاً ضئيلة متهالكة، وبئراً لها حواف حجرية ما زالت حزوز الحبل الوالج إلى العمق ترسم وجودها فلم تتمكّن تهافتات الحقب وعدو الأعوام على محوها رغم نضوب الماء وتخثّر العتمة

محله... يسوقنا الفضول إلى الزوايا والانعطافات في الداخل فنرى إلى هياكلَ عظمية لابدّ أنْ تكون إنسانية نضحت أنسجتها لحماً ودماً لتشربها الأرض واهبةً أوشاماً من هاته العظام تحكي دورة حياة كانت هنا لأناس ظلّوا متشبثين بأرضهم ينكرون المبارحة.[هل " الفقهاء" فردوس أبدي؟]. تشبّث وصلَ حدَّ الموت السرمدي.. من هذا يولد السؤال الثقيل: لماذا لم يتحرك هؤلاءِ المتمسكون بالمكان شطرَ أصقاع أخرى ربّما ستغدق أوفر عيشاً وأهناً بالاً؟..

يقول غاستون باشلار:(كم من زمنٍ طويلٍ نحتاجه قبل أنْ تنتشر موجات الطمأنينة من مركز الفتنا لتصل نهايات العالم.؟)16.. هو ذا مسوّغ التشبّث إذاً. وهذا هو عين الجواب..الحاجة الزمنية الطويلة، المليئة باللا متوقع للتكيّف / صناعة الألفة / تجيير الذاكرة / تطبيع العين /فبركة اللسان / تغيير لوامس الأصابع / برمجة حركة الأقدام / ترسيم خطوط التواصل الحسيّة مع الأشياء: حجر وشجر؛: دروب ومنعرجات؛: ظواهر وأخيلة. كل ذلك ما يثير التوجّس لدى البشري الذي يرى وجوده معلّقاً بخيط القرار: هل يرحل هو المنبجس من رحم شجرة وأعماق غدير، وانفتاح واد، وفم بئر فيخضع لتلك المهيمنات أم يلتصق بهاته المنبثق منها / المحفور فيها ليضمن سلامة القبض على قارورة عطر الأيام المنصرمة؛ المتوزّعة ذاكرات وذكريات على آجرات البيوت وتراب الدرب / على (عين سطيل)17 و(عين عزاز)18 والمالئات يرفلنَ بدفيق الماء العذب؛ يرطّبنَ

الوجوه المستديرة لتقليل صهد "القبلي"19، وتكسير سهامه الناريّة ويعدنَ بقِرَبِ الماء ملأى فلا ضجراً أبقينَ ولا عذابا.

في (الفقهاء) تتناثر البيوتات القديمة مبعثرة لا تتجاور بحيث تتلاصق الجدران.. هذا التناثر والتبعثر يعكس شعور الفرد الصحراوي بانعزاليته رغمَ مسوح الألفة الراكضة في بطاح روحهِ.. فبينما تجابهه البيداء بكلَ شسوعها ومجاهيلها ومفاجآتها – وهذا ما يستدعي التلاصق والتراص مع الآخر ضرورةً – نجدهُ يتّخذ الحذر ويُبقي على التوجّس والتوفّز من نوايا البشر فيؤثِر التباعد رغمَ مظاهر التقارب. ويعيش التقارب المقرون بهاجس التباعد...تناقضٌ يبرر نفسَهُ، ولا يبرر واقع الحال.

***

يتقدمنا الفضول خارجين من " الفقهاء" [إلى أين؟!].. ربّما قرارة (أم الرجي) تنده بنا لتحكي لنا سيلاً من أسرار وأساطير تمّت على عطفات وديانها وتعرجات سفوحها وكبرت؛ غير أنّ الهمود طواها قبل أن تنال حظّها الأوفر على لسان المارّة والمستقرّين - ولو لفسحةٍ - من الرعاة. وقد نستجيب لوادي (النقرة)20 أو وادي (الأبرق)21. وقد ننحدر جنوباً باتجاه (سرير القطّوسة)22 و(تمسة)23 و(زويلة) 24؛ ويظل هدفنا اللحاق بـ " نانا مليحة " وهي تعرّج مع سيّدها الذي يستعبدها تتفقد زوجها " بلال " [هل كان بلال زنجيّاً ومؤذناً؟] غيّبهُ السبب القدري فغاب عن العين.. وبين إلحاح سيدها المتحكّم، المُسيِّر لمقدّراتها في التحرك مع الركب أو العودة

للملاذ / النجع؛ وبين دافع البحث عن الزوج الفقيد في المتاهاة العتيّة كان قرار طعنها بسيف حنق سيدها اللامس بتصرفها خروجاً على أوامره فحدثت الأسطورة: هبّت عاصفة هوجاء جمعت جنون الأعاصير الربّانية جميعاً تنتقم لمقتل المخلوقة / المرابطة / المتصوِّفة.. سبعة أيام اختلطت معادلات الليل والنهار.

هاجت الرمال وماجت !!

ساحت وفاحت !!

هبَّ العصف مقترناً بهستيريا الومض وقصيف الرعد ممتزجاً بدوّامة الكدر. تعالى الصفير والأزيز / النشيج والأنين. ارتفع الزئير والعواء / الهديل والثغاء / الحمحمة والهرهرة. تمازج الهواء بالدماء؛ وتعفّرت الغيوم بلعاب الصرخات. ضاعت التلال واستُبيحت الوديان. تهدّجت التضاريس وتلاشت الجغرافية. جاء الصوت: إنّهُ يوم الحشر: (القارعة ما القارعة).. (إنَّ زلزلة الساعةِ شيءٌ عظيم) و(أقترب للناس الحشرُ وهم في غَفلةٍ معرضون). ارتفعت الأكف والعيون [هل ثمّة أكف ظلّت وعيون استدلّت؟] صوب السماء تتضرع وتتشفع / ترجو وتتأمل / تخشع وتركع: شاكية باكية مسلِّمة مقدراتها بيد علاّم الغيوب.

بانجلاء الليلة السابعة؛ ومن إحدى أبواب السماء السبع سقط " الشكشاك " ثم تلاه " الطبل الكبير" يضرب على غشائه رأس عصا ينتج صوتاً إيذاناً بانجلاء الغشاوة وإعلاناً بانتهاء الغضب... وتتولى المخيلة مهمّة

إكمال فحوى الأسطورة فصار مكان القتل قبراً؛ وتصيَّرَ القبر بتعاقب الأيام بؤرة ضوئية يمكن لقاطع الفيافي ليلاً مشاهدتها تضيء عتمة الصحراء المحيطة، باثّةً نوراً وهّاجاً لا للاستدلال فحسب بل ولترسيخ يقين أنَّ أولياء الله وتقاته لهم منزلة وشفاعة وتبجيل عنده ومن يناهضهم أو يسيء لكراماتهم سنذيقه العذاب السعير.. هؤلاءِ أولياؤه الأقربون، على الأرض راسخون؛ وفي العليين، رافلون، أمّا المناهضون العاقّون – الباحثون عن مغفرة متأخرة وعفوٍ فلن يجدي تشفّعهم حتى لو راحوا يصرخون: " ربّنا غلبَ علينا شقوتنا وكنّا قوماً ضالين."..

ولأجل أنْ لا يصيبهم الضر وتمسّهم الغاشية راح الأحفاد يقيمون مناسبة للمأتم ويحيون طقساً صوفيّاً سنويّاً يمتد لثلاثة أيام.

***

الإطلالة من شرفة الحامية الطليانية المهجورة والنظر صوب المدينة القديمة يمكّناننا من الرسو على المقبرة التي تتبدّى انبثاقات ترابية تتوسدها أحجار رمزية تشير إلى تواجدات آدمية طواها الثرى وأسدلت الأحقاب البعيدة ستار تجاهلها فباتت نسياً منسيّاً. لا أهل ولا معارف يقربونها.. إنها حاوية الضائعين الذين طوتهم عاديات الزمن وجعلت أحفادهم يلتحقون بركبهم بناء على معادلة سرمدية تقول أنَّ الفناء ديدن المخلوقات؛ بل وكل شيء إلى فناء..؛؛ والرائحة هذه الراقصة في الهواء المشبّع إنّما هي رائحة أرغفة الخبز المنبعثة توّاً من تنانير البيوت الحديثة

تشير إلى استمرارية دورة الحياة رغم الشعور الجازم بهذا الفناء. وصيحات الديكة المفتضّة همود الليل، والممزِّقة رمادَ الفجر ليست إلاّ هتافاً بتوالية الوجود. وما الثغاء القادم من ما وراء (المشقق)25 لأغنام ترعى وإبلٍ تجتر إلاّ صوت التواصل الخلقي لحركة الطبيعة لأنَّ أشجار الطلح الماثلة أمام الأنظار تبقى تجاهد الهجير واللفح فيما تحتفي بالهواء البحري القادم من تخوم الشمال محمّلاً بأشذاء نديّة تتوشى برسائل الحياة المنبثقة من رحم الهمود..

واحة زلة

2001.9.1

---

(1) ،(2)و(3)و(4): مدن ليبية تتوزع ساحل البحر المتوسط.

(5)ز(6)و(7)و(8):مدن ليبية تتوزع جنوب الأراضي الليبية.

(9)و(10)و(11)و(12)و(13)و(14): مدن وواحات تنتشر من غرب الأراضي الليبية حتى الشرق.

(15): واحة من واحات الجفرة تقع وسط الأرض الليبية.

(16) " جماليات المكان ": غاستون باشلار / ترجمة غالب هلسا.

(17)و(18): عينا ماء يجريان داخل واحة " الفقهاء".

(20) القبلي: رياح حارة وجافة تشابهها في مصر " الخماسين" وفي الجزيرة العربية والعراق " السموم".

(21)و(22و(23)و(24): مدن ليبية تتوزع الوسط الليبي.

(25)جبل يجاور واحة " الفقهاء" يؤومه الرعاة بمواشيهم طلباً لكلأ.

الهروج(1).. بورتريت طبيعة

الصحراء.. هذا المدُّ الرملي / المساحيق الصفر / الكثبان الدافنة مباهاتها بخجل الزوال حيث لا مكوث ولا استقرار، فقط استكانة محدودة وتوقع ابتداءات ريح ستغير تأثيثات الجغرافية... الصحراء حداءات تُردَّد لمناغاة المجاهيل اللاتعُد في المديات الشسيعة اللاتحد. نداءات تُطلَق لإهراق دم رتابة تُصاحب خطى الركب لتبعث في دروب الروح انعطافات تُحسَب من باب التسلّي المُرتجى.

الواحة.. بساط المنابت الخضر / نقوش النخيل الدكين بترادف السواقي والغدائر على بساط أرضي يختزن إرثَ البقاء.. الظِلال المُستَحبّة، الموشومة كأمان ورؤى للضاربين المفازات على متواليات الرمل والأخاديد..الواحة فيضٌ وانتعاش / لقاء وأحاديث / تمر ولبن. تطلّعٌ لقادمات غيب، واجترار لذكريات شخوص.. شخوص ندةَ بهم السراب فالتهمتهم الفيافي. مثّلوا الوجود المبتغى حتى طوتهم عاديات الثرى [قبور مبعثرة: قبور انفرادية غدت من تضاريس الأرض. قبور حوت حيوات

مجففّة / محنّطة لأناس ضربوا في الفلوات بلا تاريخ يبوح عنهم، ولا هوية تعرض ملامح خطاهم؛ لأنَّ هوية الصحراء هي الطاغية المتُدكترة.

إنّ لفظة إنسان في هجير صحراوي يعني ذرّة رملية لا حولَ لها تجاهد عائشة بأمل رضا قسري، إذْ لم نرَ ما يجاهر بوجود حضارة رملية.. حضارة تمجّدت من رمال على رمال. تُنحَت الوجوه – عادةً –والأشكال والخطوط على تثلّمات الصخور وبروزاتها لشواهق الجبال الرسيخة ولم تُرسَم على انبساطات الرمال وهشاشاتها. من هنا صارت الواحة رمزاً؛ وكان على الآخرين ضرورة التلاقي ثم التجمّع، ثم اتخاذ قرار البقاء خشية الفقد الأبدي.].

هل الواحة نقيض الصحراء؟.. ابنة تأتي من رحم أُم فتتمرد عليه؟

وهل الصحراء مالكة عاطفة الحنو؛ بائحة للواحة أنْ تعيش حياة الرفَل: ماء وخضرة بينما هي عطشى تعيش اللفح المستديم والهجير الأزلي؟.

هل الواحة فرضٌ لا حولَ للصحراء على رفضه وتهميشه؟ أمْ الصحراء كينونة طفيلية وسرطانية تنامت زحفاً قبل سحيق زمني فالتهمت غدراً وغيلةً تلك الانطلاقات الخضر الجيّاشة وحجّمت الزروع الهادرة احتفاءً وانقضّت على اليناعة الهاتفة بالمباهاة؟

إذا كان ذلك يعطي استنتاجاً إيجابياً فلماذا إذاً تقصّدَ " ديلاكروا " (2) على جعل شخوصه البدوية في الكثير من لوحاته تتقرفص أو تنتصب على

منظومات رملية خلفياتها كثبان صفر ولم يجعلها تحيا التفاصيل تحت ظِلال حشد صف نخيل عند حافة غدير ضاحك؟

في اللاتينية لغةً يُطلَق على الواحة اسم "أويسس oasis " وهي كلمة صوتية يقيناً جاءت من نبوءات الحداء "أوييييييييييي" لحظة ينطلق البدوي رافعاً عقيرته بنغمة المناغاة إدراك تخوم الواحة المُنتَظَرة بعد رحيل زمني طويل. وشفرة التحرك المستديم "أوييييي| فاتحة دخول / استهلال صوتي لفيض الكلمات المغناة شعراً.

للذي لم يشهد الصحراء وبعيداً عنها لابدَّ أنْ تثيره صورة المخلوقات كبيرة الحجم.، متفاوتة الأبعاد تلك التي اسمها " الجمال" وأطلقوا عليها ترادفاً " سفينة الصحراء " كونها تشق عُباب البحور الرملية وتقطع بصبر منقطع التخيّل لهاثات أرضية صلبة كانت او رخوة.[كنّا نعيش طفولة شبه صحراوية حيث مدينتنا (3) التي نسكن تمدُّ يداً للماء ويداً للصحراء جاءها يوماً ما المتنبي ليعُلن نبوءته الشعرية.. أتذكّر قدوم الكثير من مشاهد رؤية الجمال وهي تقعي -وسط السوق - تمارس الاجترار المستمر، وأولئك المتدثرين بالعباءات الوبرية بوجوه موحلة صفراء مزرقّة صارمة تتقدّمها شوارب هي علامتها المميزة.. كانت البهجة(تسري إلى) و(تتراغى في) قلوبنا نحنُ الصبيةَ وتدفعنا إلى تقديم الخبر الذي هو بشارة حول الأكياس الخيشيّة تحملها الجمال لتفرّغ عند واجهات المقاهي تقدُمةً للأراجيل رديفة الشاي.. تكمن البشارة بمواعيد نضربها للاقتراب من مداخل هذه الحيوات الضاجّة بالرجال الجالسين وهم يسترخون بانتشاء يمتصّون

وينفثون دخاناً أبيض؛؛ وقد تبلغ بنا الشجاعة الدخول إلى جوف المقهى مخترقين جموع الرواد – القادمين من أرياف قريبة- بحجّة شرب الماء. لكنَّ الهدف الأسمى يكمن في ملء رئاتنا من أريج الرائحة المنبثّة من نار ولّدها احتراق بعر الجمال الذي يدفع به مُعد الأراجيل إلى حضن الموقد.. نغترفُ شهيقاً عميقاً دفيقاً يملأ صدورنا فلا نبغي استحالته زفيراً.. وندرك غب الأسئلة المنسكبة من أفواهنا على الكبار سرَّ الأريج المنبعث من هذا البعر أنَّ ما تأكله الجمال غذاءً في البيداء إنّما هو نباتات عشبية شذيَّة حيث " النوار" و" العريعرة" و" الزعتر" و" الحدقدوق"، وأنّ هذه البيداء تبقى رُغمَ جلفِها وجفائها وبخلها تغدق على مخلوقاتها السيّارة – بشراً ورواحل – دواءً عشبيّاً طبيّاً طيباً يقيهم تعقيدات منتجات دوائية تأتي بها الحضارة على شرائط من مهدئات مؤقتة لاحقة لألام مستديمة سابقة.].

وللجمال أهمية حربية لم تعرفها أفريقيا إلاّ في عهد الأمير الافريقي " قابايون "، هكذا يعرض المؤرخ " بروكوس" تصوّرَهُ، وهكذا يتقدّم لإنصاف ذكاء هذا الأمير المُهدَّد بعدوٍ عتي اسمهُ " تاساموند" - أوائل القرن السادس الميلادي – يقود هذا المحارب أتباعه الونداليين مجيدي الحرب على الأفراس للاستحواذ والتملّك المسبوق بالسبي فيعمل الأمير المُدافع من الجمال سدّاً دفاعيّاً مستديراً وبعمق اثني عشر بعيراً، يجعل داخلها حشد النسوة والشيوخ والأطفال حمايةً لهم؛وخارجها ترك المقاتلين يتوزعون استعداداً للمواجهة فأفشل خطة المهاجمين عندما صدمَ الأفراسَ منظرُ

الجمال وأخافتهم رغاويها بينما راح مقاتلو الأمير قابايون يمطرون الأعداء بالنبال من بين هياكل الجمال فيمزقونهم ثم يلاحقونهم حتى الموت.(4)

الصحراء.. ميادين حرب / كابوس مستديم

كانت الصحراء ميادين مبعثرة لتدمير حلم القادم من بعيد بغية الاستحواذ؛؛ كوابيس متوالية تقضُّ للرجل الطامع نوماً جَهِدَ كثيراً لتوفير مستلزمات الهناء فلم يفلح. وكثيراً ما ردّدَ سيل شتائم وجيش مفردات مطحونة بالبذاءة لعنةً على هذه الأرض غير المطواعة حتى وصل اتهام الوفير منهم بتآمريتها وخداعها في منع رجالاته من التقاط أنفاس البهجة بانتصار ولو بقدر حفنة ضحكات.

في الصحراء دارت أعتى معركة بشرية كان "العلمين" اسماً لها. تراجعت الأنسنة وتقدّمت الوحشية / تقهقر العقل المسالم / ورغبة الدمار أعلنت انتصارها [استحالت الصحراء غابة تعرض قوانين أزلية أساسها البقاء للأقوى.] فمات المستضعَفون على لهيب الثرى المتوهج الفوّار بينما استفيَئَ المتجبرون نصراً زائفاً بُني على جماجم المُقادين بالنار لصياغة نياشين التجنّي والخديعة والاستكبار، تاركين آثاراً تُجدِّر جسد الأرض

محيلةً الداني المقترب نثاراً لحميّاً.. ألغامٌ تترك رعباً يوميّاً يشيع في طوايا النفوس الآمنة والأجساد المستسلمة لقدرها.].

إنَّ التحرك باتجاه " الهروج " يقودنا إلى متاهة الدروب المبعثرة وسط تنامٍ خرافي تصنعهُ الطبيعة كمثلٍ مثير لجملة استفهامات أولها كيف توالدت ثمّة الارتفاعاتُ الصخرية لتنحت منها حفنة جبال تحتل حيزّاً ظاهراً في قلب الخارطة الليبية وسط جغرافية رملية مذهلة تلتهم آلاف الكيلومترات المساحية (يبلغ أعلى ارتفاع لمجموعة جبال الهروج 1200 م) وآخرها سعة القدرة البشرية الفاعلة بالتحرك الحثيث، وتشكيلاً لنجوع تأخذ أقصى استفادتها من الهبات السمائية فلا تترك غديراً إلاّ ونهلت منه حتى النضوب، تحركاً لغدير آخر؛ ثم آخر؛ ثم آخر عبر متواليات التفكّر الأسطوري اعتماداً على ثوابت تزرعها السماء ليلاً أساسها " درب التبّانة " بزحفهِ الوئيد، وحركة " بنات نعش " المتوالية يوميّاً إغداقاً لأمان داخلي بعيداً عن خشية الولوج في مدارات التيه [تبقى " طيبة الاسم" و" السبع" و"شليمة الحاذ " و " القلاع " (5) ملاذات طبيعية ينحو صوبها الغزال الهارب و" الودّان"(6) المُلاحَق من أعين البنادق المعدنية.وتبقى تلك الهوّة تجمع خبايا يفوه بها الحكّائون عن تفاصيل طقوس الجن السكن قرب قراراتها، وغواية الغيهب الذي يحيل الساقط فيه _ سهواً _ صدىً مترددا!اً لا يغيب عن مسامع الواقف / المتّخذ حافةً من تراصفات الحواف يتطلع بذهول التمتمة عن إعجاز آسر يقود إلى شعور يشير لبدائية الإنسان وضعفه، وضموره، وضآلته أمام قدرة خالقه / ميتافيزيقيّة مطلقة.)...

في فضاءات الهروج يخترق مألوفية الحياة الهادئة ثغاءُ الأغنام المتروكة بحريّةٍ تتفاوت وقيود المساحات الحسيرة في قرى الرعاة _ لعلَّ أقربها " زلّة " (7)، الواحة التي تشكّل فماً يغذّي الحياة الهروجية ويتغذّى منها _ كما يأخذ الفرد الموكل إليه مهمّة الرعي حريةً في التأمل والبحث تفرّساً في الأرض الهشّة مع الصخور السود المتفحِّمة. وقد يدهش طافياً على جناحٍ من الشدَهِ وهو يرى هياكل عظمية متحجّرة لأسماك وزواحف ومخلوقات مائية غريبة ترسم وجودها الأزلي على الصخر البازلتي؛ وتصبح عملية جمع القواقع المختلفة أحجامها وألوانها كشيء من لعبة محفّزة لإثارة صوت الخشخشة يضمّها كيس قماشي بعدما ينجلي فضوله وتتّحد استفهاما ته بفعل إجابات السابقين من أنَّ الهروج يوماً ما كان بحراً تملأهُ الظلمات، وتعجُّ فيه مخلوقات البحار، ومكامن الأسرار الباعثة على الحيرة الأبدية، وما هذه الهياكل الجبلية المتفحّمة وما حولها من تواجدات صخرية سوداء إلاّ نتاج براكين غير محسوبة تفجّرت غضباً فجرحت البحر جرحاً مميتاً؛ موقفةً مستلزمات الديمومة لديه، محيلة طراوة الأرض وطينها وسبخها صخراً ورمالاً تنأى عنها مدارات المياه هروباً إلى بحرٍ عريض وسيع اسمه " المتوسط ".

إنَّ تحركاً واسعاً لقوافل السيّاح السيّارة _ والتي نبصرها على الدوام تخترق زلّة _ باتجاه الهروج يعكس تفاقمية الفضول الإنساني للوصول: تحديقاً، وتصويراً، وتحليلاً، وتخميناً، وأخذ عيّنات، وتفكير في بحث، وتصميم على تأليف، ودخول عوالم أساطير بغية اكتشاف إرهاصاتها

الأولى تبقى حتمية وضع اليد على مخلّفات وتراكمية آثار من بصموا أفراحهم ومراثيهم / رقادهم ويقظتهم / جهدهم المثابر ويأسهم الأليم مهمّة يتولاّها القادمون بفضول شائه وهياج جوّاني يشبه حاجة جائع إلى طعام منتظَر.

تطالعنا الوجوه الحمر المسلوخة من وراء زجاجات المركبات، وخلال النوافذ الجانبية الصغيرة. تدهش عيونها لأننّا نعيش حيوية ظاهرة في واحة كل ما حولها قفر / خلاء يحسبونه نهاية الدنيا، ويظنّون البقاء الآمن فيها ضرباً من الجنون العابث / الإصرار المكين.. لكنَّ دهشتهم سرعان ما يساورها الزوال عندما يلحظون أبراج الكهرباء ذوات الضغط العالي تخترق عباب الصحراء، وأطباق الأقمار الاصطناعية تجمِّل هامات البيوت بينما يستحيل ليل الواحة كرنفالاً من مصابيح مزغردة تنثر أنغامها الضوئية على واجهات الأبنية والطرق المعبّدة، وكتوف الرمال التي تشكّل أرصفةً لامعة فيستحيل لديهم حال العجب للتكيّف والرضا بالموجود إلى رغبة للعيش واغتراف طمأنينة يفتقدونها في مدنهم البعيدة المحتشدة بالضجيج، والفاقدة أمان اليوم والغد.. ويأخذهم التوجّه صوب الهروج بقناعة أنّهم بأمان ظاهر، واستقرار لا يرقى إليه الشك، وأنَّ ذئاب الصحراء وضباع الأخاديد، ونسور الأودية لن تقربهم؛ ولن تكون أيّما خطر على تحركهم؛ وأنّ أسطرة هذه الأرض برمالها الصفراء وصخورها السوداء، وفضائها المستحم بالصفاء سيمدّهم بما يشبع الفضول، وما يملأ عندهم الصفحات؛ وأنَّ وادي " بوشبيرم " (8) سيمتد لعشرات

الكيلومترات، يزوّدهم رقيق الماء من البرك الراعشة وألق الزروع العشبية حيث الأجمّات حاضنة أنفاس الطيوف القادمة برفيف الحنو، ورعش الشذا؛ مانحةً المخلوقات المتطيّرة خوفاً ملاذات للأمان. لكنهم لن يروا ما يشير لمجدٍ لهم سابقٍ [لا أثر هنا لمسرحٍ روماني ومدرّجات صخرية، ولا أنياب نافرة لأسود شرهة، ولا عيون وحشية لنمور جائعة تترصد فريسةً مُعدَّة ومُقدمة على طبق من أرض مستديرة أمام أنظار نُظّار ساديين يعيشون كرنفالاً عذباً على صراخ الممزّقين، وظمأ ظاهر للارتواء من لون الدماء التي تنفرها الأعضاء البشرية المهتوكة بنهش أخرق.]...

الرومان وقبلهم الفينيقيون؛؛ وبعدهم الطليان لا يفضّلون الرمال، والصحراء بكثبانها وأخاديدها تمثِّل (تطيُّراً وفألاً سيئاً لأمانيهم). لا غرابة فكل الذين استهانوا بها أذلّتهم، والذين وطئوا أرضها قَسراً طوتهم.. وحدهم فقط أهلها من عاش تفصيلاتها وخبرَ أمزجتها؛ واستنطقَ تمتماتها وصمتها وعبثها، وجنونها فأحسنوا السلوك معها؛ لأنَّ نمط التعامل يحتاج لخبرةٍ تمتد إلى أسلافٍ، وإدراك يتعالى وصولاً إلى تفاقمية قدرة لا تقبل الخطأ. إذْ الخطأ موت، والإيغال في ارتكابه خطيئة لا عودة عن كسب غفرانها.

تأخذك الأيام التالية من ابتداءات الربيع باتجاه مناحي الهروج عبوراً إلى " واو الناموس " (9) بعد شتاء أغدق بما قبض من غمامات ماطرة أهرقها على تضاريس الأرض بلا استثناء، وأومأ إلى مالكي المواشي؛ سكّان الواحات؛ هون- زلّة – ودّان – الفقهاء – سوكنة أنْ هيّا.. تتحرك النجوع على تراتبيات رحلة ربيعية حيويّة، أبجديّتها زروع هي بسطٌ خضراء تعلوا

عن جباه الأرض حثيثةً تمايلها أصابع الأنسام.؛ وغدران تلتهم صفاء الأرض لبثّه مرايا من بهاء ذهيل... تتراقص عيون المواشي توافقاً معه ابتهاجات مالكيها.. وجموع السيّاح القادمين اكتشافاً تتوالى، سابحة على رفيف جذل وإيقاع طبيعي منغّم ولا بدَّ لهم أن ينظروا بعين الفضول للناصبين خيامهم / للشاعلين النيران / للرافلين على جلسات ارتشاف الشاي الأخضر.. ولا بدّ أنّ (هؤلاء) السيّاح متشوقون لسماع أحاديث (أولئك) الناس المحمّلين بحكايات الإرث الوفير / بأبجديات التوقّف والارتحال / بعميم الرؤى وخزين الميثولوجيا.(تكمن ميثية الرجل الصحراوي في استيحاء بعداً مكانياً يبني عليه ذائقته المتطلّعة لتأجيجات حلم تتحقّق على آجراته حشود الأمنيات فيرى إلى مدينةٍ متخيّلة (يوتوبيا)؛ لا إلى رجلٍ أسطوري يعجب بشجاعته ويذهل لجبروته إذْ أنَّ رسومات من هكذا تمثيل لم تعد تخطر بذهنه لأنّه على تماس مع الله الذي يرى صورته في السماء ليلاً، وعلى طراوة الأنسام وانفتاح المدى نهاراً فلا يجد أجمل منه حسناً وأقوى عظمةً..) وهكذا راح يخلق لنزوعه ونوازعه تشيئات يعيش واقعها التخيّلي... تجلّت إزاءه " واو الحريرة "(10) مدينةً تحتضنها الصحراء فولجها بدافع الفضول اعتماداً على سؤال البحث عن ناقةٍ تاهت منه، فيتيه _ هو_ انبهاراً على إيقاع عدم تصديق لما يرى حيث الناس ترفل على أديم شوارع هندسَتها الأذواق الرهيفة / المخيلة المستثارة؛ تتراصف على جانبيها أبنية اشراقية بشرفات تطلُّ منها نساء بوجوهٍ قمحيّة لدنةٍ، يرفلن بأثواب حريرية بارقة فيما تلامس كتفيه أكتافُ أُناس جمعهم حب العمل مرتدين غيوم القناعة.. يلتقيه من يلتقيه منهم فيعرض عليه رغبة

الاحتضان ضيفاً. يصرف وقتاً وقد سمع بمن يقول أنّه شاهد الناقةَ، وآخر بأنّه أمسكها؛؛ وآخر يسلّمها إليه، فيعود إلى النجوع ليقص وقائع ما جرى له متطيّراً / متحيراً /مذهولاً كأنه يحكي بلسان اللاصدق، وبعين اللارائي؛؛ حتّى أنَّ الذين ثارت شهيتهم لرؤية المدينة وسال لعاب فضولهم لنيل واحدة من حسناواتها عادوا بخفّي الخيبة بعدما انطلقوا يضربون في الفلوات بحثاً؛ وصار " واو الحريرة" طيفاً ليلياً / يومياً يكحِّل رموش الواضعين رؤوسهم على وسائد الرحيل باتجّاه شواطئ الكرى... يتمتع السامعون السائحون بفحوى الكتابة.. يدوّنونها على صحائف الذاكرة لتستحيل ذكريات على ورق كتبٍ يؤلفونها أو أقاصيص يحكونها...

هكذا ينحو انتماء الهروج إلى سيلٍ من تضاريس أرضيّة تطبع هويّتها الآتية من مزيج جبلي وصحراوي، وإلى تراكمات حكايات متوارثة لتصنع تاريخاً أزلياً! سوف نتلمسه وجوداً يتراصف مع موجودات الجغرافية الليبية، وإرثاً لا يمكن الاستغناء عنه، أو المرور به مرور النظر فقط.

---

(1) الهروج: كثافة جبلية (بقايا براكين) (وديان متداخلة) تحتل وسط الصحراء الليبية.

(2) ديلا كروا: فنان تشكيلي، قدمَ إلى شمال أفريقيا.. بهرته الصحراء فانثنى يرسم لوحاته من واقعها.

(3) السماوة: مدينة الكاتب. تقع في الجنوب الغربي من العراق؛ على مشارف الصحراء الغربية. يمر بها الفرات؛ وقد مرَّ بها المتنبي معلنا نبوءته، قائلاً: تركنا من وراء العيس نجداً / ونكّبنا السماوةَ والعراقا.

(4) إنظر كتاب " مدنية المغرب العربي " تأليف أحمد صفر – دار النشر – بوسلامة. ص389.

(5) طيبة الأسم / السبع / شليمة الحاذ / القلاع / صيّاد / أبو الهشم: أسماء لجبال ووديان تتوزع الهروج.

(6) الودّان: أحد أصناف الغزلان. له شبه كبير بالكبش؛ وقد سمّيت احدى واحات الجفرة التي تحيط الهروج بهذا الاسم.

(7) زلّة: واحة من واحات الجفرة الخمس.

(8) بوشبيرم: أحد وديان الهروج الكبيرة.

(9) واو الناموس: واحد من أكبر الأودية؛ تستمر فيوض الماء فيه على مدار العام.

(10) واو الحريرة: مدينة حضرية متخيَّلة في واقع صحراوي يكتسحه الهجير.

ببلوغرافيا

زيد الشهيد: هو زيد عبد الشهيد دحام عبد الله؛ مواليد مدينة السماوة – العراق.. تولد: 10 مايس/مايو 1953، بكلوريوس لغة إنكليزية -جامعة بغداد - سنة التخرج 1983 هو الأبن الخامس لستة أخوة وثلاث أخوات.

شغف بالأدب منذ صغره فقرأ ما على رفوف مكتبة بيتية جمع فيها أخوتُه الذين يكبرونه من كتب أدبية وفلسفية مثلما اطَّلع على ما جمعه أبوه من كتبٍ دينية في صناديق كارتونية عديدة. استهواه الشعر ثم اخذته القصة والترجمة والنقد الأدبي، وأخيراً سرقته الرواية ليرفل على خميلة مدها الصعب ولكن الجميل. ساهم في بحوث ودراسات عديدة لمهرجانات وملتقيات كمهرجان المربد لأكثر من مرة وملتقى السياب الأول والثاني وملتقى الرواية الأول ومهرجان الحبوبي ومهرجان المتنبي وغيرها. اصدر مجلة ((تراسيم)) عام 2009

وشغل رئيس تحريرها كمجلة فصلية تعنى بالقصة القصيرة جداً، وهي أول مجلة تصدر في العراق وتعنى بهذا اللون الادبي.

عمل مدرساً لمادة اللغة الإنكليزية في المدارس الثانوية: العراق واليمن وليبيا.. وقضى اربعين عاماً في المهنة التربوية.

عضو اتحاد الادباء والكتاب العراقي.

عضو اتحاد الادباء العرب.

عضو نقابة الفنانين.. حقل الموسيقى

عضو جمعية الفنانين التشكيليين فرع المثنى

معلومات مضافة لسيرة زيد الشهيد

حرر وقدم الناقد الدكتور فاضل عبود التميمي كتاب (حفيد اوروك.. قراءات في ادب زيد الشهيد) تضمنت دراسات بحثية لأساتذة اكاديميين ونقاد عن دار تموز - دمشق -2009

أصدرَ الناقد الدكتور علي متعب جاسم كتاب (من ذات المبدع إلى الذات المبدعة.. زيد الشهيد في حواراته) عن دار أمل الجديدة- دمشق 2016

اصدر الناقد الدكتور عزيز حسين علي الموسوي كتاب (كتاب الناس.. النزعة الإنسانية في أدب زيد الشهيد الروائي) عن دار أمل الجديدة - دمشق 2018

اصدرت الناقدة الدكتورة فوزية لعيوس الجابري كتاب (فن الرواية في سرديات زيد الشهيد) عن دار أمل الجديدة - دمشق 2019

اصدر الناقد حميد الحريزي كتاب(الابداع والتجديد في روايات زيد الشهيد) عن دار رؤى - العراق 2021

ولقد نال الباحثون الاتية اسماؤهم على شهادة الماجستير في اعمال زيد الشهيد، وكما مبين أدناه:

(الشخصية في روايات زيد الشهيد) للباحثة وصال طارق العباسي– عن جامعة سمراء 2014.

(تقنيات السرد في روايات زيد الشهيد) للباحث علاء كريم عاجل من جامعة المصطفى العالمية – فرع طهران 2016.

(التمثُّل السَّردي للتاريخ في روايات زيد الشهيد) للباحثة مها خالد سلمان من كلية التربية للعلوم الإنسانية – جامعة ديالى 2018.

اطروحة دكتوراه بعنوان (المرجعيات الثقافية في منجز زيد الشهيد الروائي) قدمها ونالها الباحث ابراهيم خليل عجيل الاسدي من كلية الآداب-جامعة القادسية 2021.

إصداراته

1993 صدرت له مجموعة (مدينة الحجر) القصصية، إصدارات اتحاد الأدباء العراق، تسلسل.

2004 اصدر مجموعته الشعرية (أمي والسراويل) عن دار أزمنة - عمان.

2003 صدرت له (حكايات عن الغرف المعلقة) قصص قصيرة جداً، دار أزمنة.

2006 أصدر رواية (سبت يا ثلاثاء) عن دار أزمنة – عمّان.

2008 أصدر مجموعة (اش ليبه دش) القصصية عن دار تراسيم – بغداد.

2008 صدر له كتاب نقدي (من الأدب الروائي– دراسة وتحليل) عن دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد.

2009 أصدر مجلة (تراسيم) التي تعنى بالقصة القصيرة جدًا ويرأس تحريرها. وهي أول مجلة عراقية تعنى بالقصة القصيرة جدًا.

2009 أصدر كتاب ترجمة مسرحية (طريق ضيق باتجاه الشمال العميق) للكاتب الإنكليزي ادوارد بوند.

2009 أصدر كتاب قصصي (أسفل فنارات الوقيعة) عن دار الينابيع– دمشق يضم مجاميعه القصصية الثلاث (مدينة الحجر) و (فضاءات التيه) و (إش ليبه دِش).

2010 أصدر رواية (فراسخ لآهات تنتظر) عن دار الينابيع-دمشق.

2010 أصدر كتاب (الرؤى والأمكنة) نصوص مستلة من ذاكرة المكان عن دار الينابيع-دمشق.

2010 أصدر (سبت يا ثلاثاء) طبعة ثانية عن دار الينابيع-دمشق.

2010 أصدر (فم الصحراء الناده) قصص قصيرة جدًا، عن دار رند – دمشق

2010 أصدر (سحر المسنجر) قصص قصيرة جداً. عن دار رند - دمشق

2010 أصدر رواية (أفراس الأعوام)، عن دار رند – دمشق.

2012 أصدر (نساءٌ تراب) قصص قصيرة جداً عن دار رند- دمشق.

2012 اصدر كتاب ترجمة رواية (الجواز THE PASSPORT) لهيرتا موللر الحائزة على جائزة نوبل للآداب عام 2009، عن دار تموز - دمشق

2012 اصدر الطبعة الثانية من رواية (أفراس الاعوام) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت

2013 اصدر الطبعة الثانية من رواية (فراسخ لآهات تنتظر) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت

2013 اصدر رواية (اسم العربة أو الرجل الذي تحاور مع النار) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت

2014 اصدر كتاب (مملكة الابداع) عن دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد

2016 اصدر كتاب ترجمة (أبو الهول بلا سر) – قصص عالمية عن دار أمل الجديدة

2016 اصدر المجموعة الشعرية (أشجان الغرباء) عن دار أمل الجديدة – دمشق

2016 اصدر رواية (جاسم وجوليا) عن دار أمل الجديدة - دمشق

2016 اصدر رواية (شارع باتا)، عن دار أمل الجديدة- دمشق

اصدر الرباعية الروائية:

1-(الليل في نُعمائه) عن دار أمل الجديدة - دمشق 2016

2- (الليل في عليائه) عن دار أمل الجديدة - دمشق 2019

3- (الليل في نقائه) عن دار أمل الجديدة - دمشق 2019

4- (الليل في بهائه) عن دار أمل الجديدة - دمشق 2019

2017 اصدر رواية (السِّفر والأسفار) عن دار أمل الجديدة –دمشق

2020 اصدر المجموعة القصصية (قصاصات من كتاب الصحراء) عن دار الورشة- بغداد

2021 اصدر كتاب(السماوة في القرن العشرين- ج1) عن دار مسامير-السماوة

2022 اصدر المجموعة الشعرية (دولةٌ داخل قلبي) عن دار أمل الجديدة – دمشق

2022 اصدر المجموعة القصصية (قصاصات من كتاب الصحراء) عن دار أمل الجديدة- دمشق

2022 اصدر كتاب (السماوة في القرن العشري|) الجزء الاول عن دار الياسمين- السماوة- العراق.

الجوائز

الجائزة الأولى في مسابقة (تموز الكبرى) التي إقامتها صحيفة (الجمهورية) – بغداد عام 1993.

الجائزة الأولى في مسابقة (الأدباء التربويين) في الشعر التي أقيمت في محافظة واسط 2007.

الجائزة الأولى في مسابقة (جعفر الخليلي) للقصة القصيرة التي أقامها اتحاد الأدباء فرع النجف 2009.

الجائزة الأولى في مسابقة (عبد الإله الصائغ) في القصة القصيرة التي أقامتها مؤسسة النور في السويد 2009.

الجائزة الثانية في مسابقة القصة التي أقامتها دار الشؤون الثقافية العامة 2009.

الجائزة الثانية في مسابقة القصة التي اقامتها هيئة النزاهة العامة – المسابقة الأولى 2010 عن قصة (بعد التحية) التي احتوتها مجموعة (فضاءات التيه).

الجائزة الاولى في مسابقة الرواية التي اقامتها دار الشؤون الثقافية العامة 2011 عن روايته (أفراس الأعوام)

الجائزة الاولى في مسابقة القصة القصيرة جداً التي اقامها (منتدى نازك الملائكة) – بغداد 2012

الفهرس







في هذه النصوص يرصد زيد الشهيد بعين كاميرا متحفزة الأمكنة ليصورها جاعلاً منها أبطالاً .. يتخذ من أماكن في العاصمة الليبية طرابلس مداخل لفعل المكان فيقف عند نافورة الغزالة، والأحصنة رافعة الزهرة، والبحر حبر الطبيعة وغيرها يطعهما الشعر برهافة باهرة سيستعذبها القارئ كثيراً. ويتخذ من الصحراء الليبية جوهراً لاستنطاق المديات الرملية ومحاورة التلال الناطقة بثقافة صحراوية تقارعها الرياح الموسمية وتلوح لها بيارق الحضارة بالقدوم .. يؤوم واحات (هون) و(زلة) و(ودّان) و(الهروج) وغيرها فيدون ما لم يُدوّن عن هذه الأمكنة من قبل. يتابع الأساطير التي تأتي على شكل حكايات يراها ناطقوها حقائق مجسدة فيدخل في غمار تأثيراتها ويجعل منها نسيجاً مهماً في تدويناته عن المكان.

ثراء لغوي استطاع الشهيد أن يوظفه بشعرية متمكنة لها قدرة إيقاع القارئ في حبائل قراءة ذوقية عالية المستوى.

الناشر


منشورات الطيوب
سلسلة الكتاب العربي